COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK
GENERAL
LIBRARY

مصر في الميدان

مصر في الميدان

صور من أمجاد الجيش المصرى ؛ من محمد على إلى عرابى

تأليف

احمد عطية الله

ملتزمو الطبع والنشر أصحاب

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابى الحلبى وشركاه

UA
865
.A8

الطبعة الأولى — يونيه سنة ١٩٤٧

مقدّمة

فى حياة الأمم العريقة فى الحضارة كبوات وعثرات ، كأيام المحاق فى دورة القمر ، سرعان ما يبزغ بعدها أشد إشراقا وأكثر تألقا .

وما تاريخ مصر الا تاريخ الحضارة الإنسانية قاطبة ، منذ أن بزغ فجرها الأول على ضفاف النيل ؛ فمن جنبات هذا الوادى سارت مواكب الحضارة إلى كل قطر ومصر ، وفى خلال هذه الحياة الطويلة الحافلة بالأمجاد المليئة بالمفاخر ، لاعجب إذا مرت بمصر ساعات نحس كعثرة الجواد الأصيل فى حلبة السباق الطويل ، ولكنها ليست أكثر من كبوة . .

سارت هذه المواكب من ضفاف النيل إلى كل مصر وفى كل عصر ، سارت ركاب رمسيس وتحتمس وأحمس ، سارت جنوبا إلى بحر الهند ، وغربا إلى بحر الظلمات وشرقا حتى ضفاف البحر الأسود ؛ كما سارت مواكب مصر الإسلامية فى مختلف عهودها فنشرت أروقة تمدنها وعلمها وفنونها كما تنشر الشمس ضوءها فى كل مكان : ولما حل أوان النضال والنزاع بين الشرق والغرب ، ردت مصر جحافل الصليبيين على أعقابهم ،

Gxch.
JAN 3 - 1979

بل تبعت المستأسدين إلى قعور بيوتهم فنزلت بجزائر البحر حتى صقلية .

حتى إذا عاد الغرب من جديد إلى عدوانه فى أوائل القرن التاسع عشر ، على يد نابليون تارة وعلى يد الإنجليز أخرى ، ردت مصر عنها وعن الشرق العربى عوادى المعتدين، فعاشت مصر جيلا من الزمان كأعظم ما تكون الأمم فتوة وأصلب ما تكون عوداً ؛ فأنفذت رسل مدنيتها إلى قلب القارة السوداء حتى رفرف العلم المصرى على أوغندا والصومال، وسارت جيوشها إلى قلب الجزيرة العربية وإلى سوريا والأناضول، لا غازية ولا معتدية ولكن فى سبيل تشييد صرح دولة عربية كبرى . واستنجد بجيوش مصر جيران وحلفاء ، فجاس الأسطول المصرى خلال مياه البحر الأبيض والأسود حتى أصبحت له الصدارة بين أساطيل العالم ، ونزلت جيوشها أرض أوربا نفسها ، فاكتسحت اليونان حتى خفق العلم المصرى على أثينا ؛ ورابضت على الدانوب ، ونزلت إلى القرم، وحاربت على ثلوج روسيا ، وعلى جبال الصرب ؛ وامتدت هذه الانتصارات إلى الدنيا الجديدة فكان لها فى تاريخ المكسيك ذكرى وتاريخ .

ولكن أوربا ما فتئت متربصة بها ؛ وماعجزت عنه بحد السيف جاءت تسعى إليه بالدسيسة والخديعة ، وما لم تحققه فى ميدان الشرف سعت إليه فى ظلام الغدر والخيانة ، وللاستعمار أساليبه ؛ فإن كانت مصر

قد كبت فى عام ١٨٨٢ فإن روحها بقيت فتية تنتظر الوثوب على عدوها، وما بضع سنين بعمر فى حياة الأمم .

لقد سقطت مصر جريحة لأنها طعنت من الخلف ، ولكنها لم تمت ولم تضعف عزيمتها ؛ لقد أشاع الإحتلال فيها جراثيم الانحلال ، فسعى بالوقعية بين أبناء الوطن ، لقد أشاع الرشوة والوصولية ، لقد عمل جاهدا لكى يفقد المصريون ثقتهم بأنفسهم ، فأنكروا عليهم مفاخر تاريخهم الحديث ، حتى جهل الأحفاد ماضى آبائهم وأجدادهم، ولكن روحهم بقيت حية ، فحاربوا الاحتلال بالنار و بالجهاد فى معترك السياسة الدولية ولم يفقد زعماؤهم اشراقة الفجر حتى فى أحلك ليالى هذا العهد .

فى هذه الصحائف صور وعبر ، صور لأمجاد ومفاخر يرفع لها المصرى رأسه زهواً ، وعبر ودروس لأولئك الذين قد يحسنون الظن بالغرب ، والغرب لا يعرف إلا فلسفة القوة ، لأنه عبد المادة فلا يرد عدوانه إلا النار والحديد .

أحمد عطية الله

يا فِتْيَةَ النِّيلِ السَّعِيدِ خُذُوا المَدَى ... وَاسْتَأْنِفُوا نَفَسَ الجِهادِ مَدِيدَا

وَتَنَكَّبُوا العُدْوَانَ وَاجْتَنِبُوا الأَذَى ... وَقِفُوا بِمِصْرَ المَوْقِفَ المَحْمُودَا

الأَرْضُ أَلْيَقُ مَنْزِلًا بِجَمَاعَةٍ ... يَبْغُونَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ صُعُودَا

فَابْنُوا عَلَى أُسُسِ الزَّمَانِ وَرُوحِهِ ... رُكْنَ الحَضَارَةِ بَاذِخًا وَشَدِيدَا

إِنَّ الَّذِي قَسَمَ البِلَادَ حَبَاكُمُوا ... بَلَدًا كَأَوْطَانِ النُّجُومِ مَجِيدَا

قَدْ كَانَ - وَالدُّنْيَا لُحُودٌ كُلُّهَا - ... لِلْعَبْقَرِيَّةِ وَالفُنُونِ مُهُودَا

شوقي

فهرست

رقم الصفحة

أبطال رشـــــيد ٩

« سنة ١٨٠٧ »

فى طريق أثينـــا ٢٧

« سنة ١٨٢٤ »

فتـــح عكا ٤٨

سنة ١٨٣١ »

حمـــاة الدانوب ٦٩

« سنة ١٨٥٢ »

فى المكســـيك ٨٩

« سنة ١٨٦٢ »

الملك أمتيســـا ١٠٧

« سنة ١٨٧٥ »

غـــدر وخيـانة ١٣١

« سنة ١٨٨٢ »

أَنا تاج العَلاءِ فِي مَفْرِقِ الشَّرْ ... قِ وَدُرَّاتُهُ فَرَائِدُ عِقْدِي

أَيُّ شَيْءٍ فِي الْغَرْبِ قَدْ بَهَرَ النَّا ... سَ جَمَالًا وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ عِنْدِي؟

قُلْ لِمَنْ أَنْكَرُوا مَفَاخِرَ قَوْمِي ... مِثْلَ مَا أَنْكَرُوا مَآثِرَ وُلْدِي

هَلْ وَقَفْتُمْ بِقِمَّةِ الْهَرَمِ الْأَكْبَرِ ... يَوْمًا فَرَيْتُمْ بَعْضَ جُهْدِي؟

وَقَدِيمًا بَنَى الْأَسَاطِيلَ قَوْمِي ... فَفَرَقْنَ الْبِحَارَ يَحْمِلْنَ بَنْدِي

وَرِجَالِي لَوْ أَنْصَفُوهُمْ لَسَادُوا ... مِنْ كُهُولٍ مِلْءِ الْعُيُونِ وَمُرْدِ

إِنَّنِي حُرَّةٌ كَسَرْتُ قُيُودِي ... رَغْمَ رُقْبَى الْعِدَا وَقَطَّعْتُ قِدِّي

حافظ

« وراح الجنود يحكمون التسديد ويطلقون نيرانهم على فرق هذا الجيش التى اختل نظامها »

« أبطال رشيد »

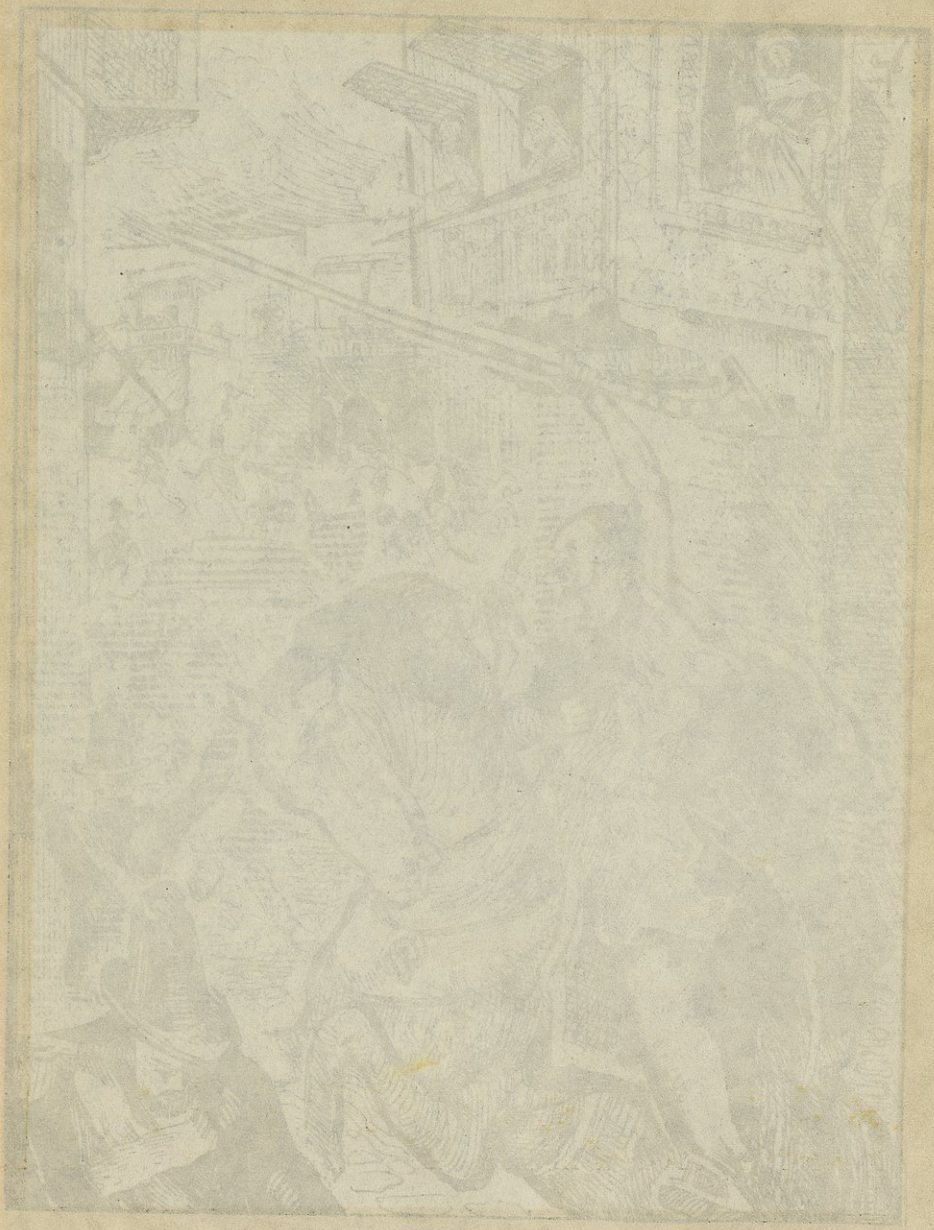

أبطال رشيد

في قاعة فسيحة بعض الشيء ، وفى منزل متواضع من منازل رشيد ، اجتمع ثلاثة رجال .

كان أحدهم شيخاً مهيب الطلعة ، اعتم بعمامة خضراء واتشح بعباءة غامقة ، وجلس فى صدر المكان على دكة واطئة يكتب رسالة ، وقد وضع إلى جانبه دواة صفراء من النحاس برز منها جملة من أقلام الغاب .

وأخذ ثانيهم - وهو ضابط مفتول الجسم له شعر وخطه الشيب - يذرع الغرفة من جانب إلى جانب ، وقد عقد ذراعيه خلف ظهره وراح يتمتم فى مشيته بكلام مقطع غير مفهوم ، وكأنه يقنع نفسه برأى معين أو فكرة من الأفكار .

أما ثالث الجماعة ، فوقف إلى جانب باب الغرفة المغلقة وهو يقلب النظر بين الشيخ الجالس والضابط الثائر ، بينما كانت أصابعه تعبث بحبات مسبحة من الكهرمان الأصفر .

وبعد قليل رفع الشيخ رأسه بعد أن ثر حفنة من الرمل على رسالته ، ونظر إلى الضابط الذى تقدم صوبه ينتظر أن يبدأه الكلام .

- لقد انتهيت يا على بك من كتابة رسالتى إلى الشيخ سعدون ، وهى فى روحها صورة لما كتبناه فى رسالة القاهرة إلى نقيب الأشراف السيد عمر مكرم .

فأجابه الضابط :

نعم يا سيد حسن ، إن الأخبار لم تعد تطمئن بعد أن أصبح قدوم الحملة الانجليزية على رشيد حقيقة واقعة، وقدبدت سفنهم هذا الصباح تقترب من البوغاز وبدا الحزن والقلق يستولى على نفوس الناس .

— وكيف لا يعترى الناس الوهم ، وقد سمعوا أن حاكم الاسكندرية ، ذلك الضابط الجبان أمين أغا قد سلم نفسه وسلم جنوده إلى رجال الحملة الانجليزية ، الذين جاءوا للاستيلاء على مصر دون أن يدافع عن هذه المدينة الكبيرة بكثير أو بقليل .

— إن الدفاع عن الوطن أيها السيد لا يفت فى عضد أصحابه قلة العدد ؛ ألم يقل الله فى كتابه العزيز « كم مِن فِئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئة كثيرةً بإذن الله » نعم إن الله مع الذين يجاهدون فى سبيله بصدق وأمانة وعزم أكيد ، لأن الدفاع عن الوطن هو ضرب من الجهاد .

— إن رشيد يا على بك ستجاهد وستدافع عن نفسها إلى آخر رجل فيها ، فان وصلت إلينا النجدة من إخواننا فى القاهرة ومن جيراننا فى البحيرة فحمداً لله وإن لم تصل فلا يقعدنا عائق عن أداء أقدس واجب .

* * *

ثم إن « السيد حسن كريت » نقيب الأشراف فى رشيد ، دفع برسالته إلى

الواقف بجواره ، ومضى مع «على بك السلانكلى» محافظ رشيد يحدثه ويستوضحه ويتداول معه الرأى .

كان ذلك فى يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٠٧ .

وقبل هذا التاريخ بأسبوعين وصلت الأخبار بأن أسطولا انجليزياً مكوناً من خمس وعشرين سفينة وصل إلى الاسكندرية ، ولم تمض أيام قليلة حتى سلم حاكم المدينة « أمين أغا » وهو من الضباط الأتراك مفاتيح المدينة إلى الانجليز ، وأصبح جنوده أسرى فى أيديهم ؛ فاستولى الدهش والعجب كما استولى اليأس على النفوس بسبب خيانة هذا الأغا ، مع أن الواجب العسكرى يحتم عليه أن يقاوم اعتداء الغريب حتى الرجل الأخير .

رأى الانجليز بعد الاستيلاء على الاسكندرية أن يستولوا على رشيد ، ومن ثم يرتقون متن النيل إلى القاهرة ، وفى اليوم الثلاثين من شهر مارس وصلت الرسل إلى رشيد تنبئ بأن الجيش الانجليزى رؤى فى طريقه إلى المدينة قادماً من الاسكندرية . وكانت عدته ألفين من الجنود يقوده الجنرال « ويكوب » مزودين بالعتاد والعدة .

أما فى رشيد فقد كان الأمر على مارأينا ، فقد اجتمع محافظ المدينة « على بك السلانكلى » وأعيان المدينة وفى مقدمتهم «السيدحسن الكريت» نقيب الأشراف يتشاورون فى هذا الأمر ، إذ لم يكن تحت إمرة هذا الضابط إلا سبعمائة من الجنود الذين ينقصهم السلاح الحديث .

بيد أن الرأى استقر على مقاومة المغتصب ، وصد العدوان بالقوة مهما كانت التضحية ، فالتضحية بالنفس والمال أشد وجوباً فى هذه المحن التى يتعرض فيها الوطن للاسترقاق .

وبعد أن انتهت صلاة الظهر فى جامع المدينة، اجتمع المصلون ومن انضم إليهم من أهل المدينة ومن أهل القرى المجاورة ، وقد حمل كثير منهم السلاح من البنادق العتيقة والسيوف والخناجر بل إن بعضهم تسلح بالعصى والهراوات ، وراحوا يستمعون إلى أخبار الفلاحين الذين هرعوا إلى رشيد يروون ما شهدوه من استعدادات الحملة الانجليزية؛ وكان الحماس مرتسما على وجوه الجميع ، وكانت الرغبة صادقة فى أن يفعلوا شيئا لردهذا العدوان ، ولكنهم لم يعرفوا ماذا يصنعون ، ولم يخرج إليهم بعد «السيد حسن» لاعلامهم بما استقر عليه الرأى .

وأقفل التجار دكاكينهم ، وتجمعوا فى السوق الكبير وحول المسجد وعند بيت نقيب الأشراف ، وكانت حامية المدينة الصغيرة فى نشاط وحركة بادية . يعدون البارود وينظفون البنادق ويمرنون خيولهم ، وينتظرون بدورهم ما اجمع عليه رأى كبيرهم «على بك» .

حتى إذا كانت العشية خرج المحافظ ومعه الضابطان رشاد السعيد ، وأحمد دانش وذهبا إلى الضبطية ، ثم خرج « السيد حسن الكريت » وسرعان ما تجمع حوله خلق كثير ، فراح يهدئ من روعهم ، ويطلعهم على ما استقر عليه

الرأى بعد أن بعث برسله إلى القاهرة والبحيرة ، وهو حماية المدينة والدفاع عنها بتضافر الأهلين مع حامية المدينة من الجنود، وأشار عليهم أن يلزموا دورهم ويغلقوا متاجرهم ، وأن يخلوا الشوارع والدروب ، وأن يتحصنوا وراء النوافذ والطيقان والأسطح يحملون ما يمتلكون من البنادق والسلاح .

فلما انتهت صلاة العشاء خلت الطرقات من السائرين ، ووزع على بك رجاله بين البيوت فتترسوا بها وأغلقوا أبوابها وراءهم ، فباتت المدينة فى ظلام دامس .

* * *

لم يكن من ضوء يسطع من النوافذ فى تلك الليلة إلا من بيت واحد يطل على النيل ، هو بيت القنصل الانجليزى فى رشيد المستر « بتروتشى » الذى أشار على القائد الانجليزى بعد احتلال الاسكندرية بالزحف على رشيد ، وقد أخذ فى تلك الليلة يعد العدة لوليمة كبيرة احتفاء بالفاتحين، فنحر نحواً من ستين خروفا ، وشيئا كثيراً من الاوز والدجاج . .

وكان القنصل على يقين من أن المدينة ستسلم صاغرة لهذا الجيش الكبير، بعد أن روعت البلاد باستسلام الاسكندرية ، وثبت هذا لديه بعد أن سمع بهرب الأهلين إلى بيوتهم وقفل متاجرهم ، وأحس بالهدوء الشامل المرفرف على المدينة .

* * *

كان على بك فى تلك الليلة لا يغمض له جفن يصدر أوامره ، ويوزع رجاله .

وفى منتصف الليل ، أرسل جماعة منهم إلى شاطئ النيل فجمعوا القوارب والمراكب الراسية هناك وانتقلوا بها إلى ضفة النهر الأخرى لكى لا يدع مجالا لأحد للفرار ، حتى يزيد ذلك من حماس الجنود وأهل المدينة ، ويدفعهم إلى الاستبسال والدفاع حتى النفس الأخير .

وفى ضحى اليوم الثانى بدت طلائع القوة الانجليزية وهى تقترب من المدينة ، فعسكرت فى ظاهرها ومن ثم أرسلوا رسلهم لكشف الطريق وتعرف حالة المدينة؛ فوجدوها مقفرة ساكنة، فأيقنوا بأن حاميتها قد انسحبت، وان أهل المدينة أصبحوا ما بين هارب أو قعيد داره خوفا ورعبا . وجاء القنصل الانجليزى وأيد ذلك وهو ضاحك مستبشر .

حتى إذا كانت الظهيرة، وكان يوما صائفا شديد الحر مع ان أيام الربيع لم تول بعد ، تقدمت الجنود الانجليزية بطبولها وزمورها وعلى رأسها الجنرال ويكوب ، تجر وراءها مدفعين أحدهما من مدافع الهاون الكبيرة .

وعند ما ألفى القائد الانجليزى المدينة يرفرف عليها سكون الوحشة لم يداخله ريب فى أمر تسليمها ، فانتشر جنوده فى الطرقات والدروب ، وكان التعب والاعياء قد أخذا من الجنود مأخذاً عظيما . فتجمعوا فى السوق وتفيأوا ظلال النخيل والاشجار، وقعدوا على درجات البيوت والمتاجر، وطفقوا يلهون ويمرحون ويعلقون ما شاء لهم خيالهم بما نالوه من نصر تليد فى الاسكندرية ومن ظفر طريف فى رشيد .

فلما كانت الساعة الثانية ، أعطى على بك الاشارة لرجاله، فما كانت إلا لحظة واحدة حتى دوت طلقات البنادق من وراء النوافذ والطيقان كهزيم الرعد بعد ذلك السكون المطبق ، وعلا الصياح والنداء ، ووقفت النساء خلف أزواجهن وأبنائهن يثرن حماسهم ، ويزودن المقاتلين بالبارود .

وهب الانجليز مذعورين ، وأحسوا بأن الشباك قد نصبت تحت أقدامهم ، فأسرعوا إلى بنادقهم ومدافعهم يدافعون بها عن أنفسهم ، وقد تحصن عدوهم فى حرز مكين . وسرعان ما شالت كفتهم فى القتال ، فلم تجد كثرتهم ولم ينفعهم ما حملوه من أسلحة حديثة .

وراح الجنود يحكمون التسديد ويطلقون نيرانهم على فرق هذا الجيش التى اختل نظامها وفسد أمرها واختلط الأمر على قوادها ، وما اسرع ان بدت شوارع المدينة ودروبها وكأنها ساحات قتال دامية .

وبينما كان الجنرال ويكوب يتقدم صفوف رجاله ويثير حماستهم أصابته طلقتان أردتاه قتيلا ، فهوى عن صهوة جواده ، عند ذلك عم الذعر والفزع بين الضباط والجنود ، وتخاذلت قواهم وأخذوا يتراجعون شيئا فشيئا إلى ظاهر المدينة ، بينما كان أبطال رشيد الامجاد لا تهدأ لهم ثورة ولا يبرد لهم حماس فخرجوا من البيوت يجابهون أعداءهم وجها لوجه .

لم يكن بد من الفرار . فأخذ الجنود فى التقهقر والانسحاب ثم استحال

الانسحاب إلى هرب، فتعقبتهم الحامية المصرية حتى أجلتهم عن ارباض المدينة.

وحاول الانجليز عند ما استقبلوا الحقول ، أن يجمعوا صفوفهم من جديد ، ولكن روحهم المعنوية كانت قدوهنت وتزعزع يقينهم، فقر رأيهم على الانسحاب والعودة من حيث أتوا إلى الاسكندرية .

* * *

كانت أخبار القتال قدانتشرت فى كل مكان وأخذ الدهماء يروجون الأقاصيص ويرددن حكايات من نسج خيالهم عن البلاء الذى حل بأهل الاسكندرية ورشيد وغيرها من المدن التى غزتها الجيوش الانجليزية، حتى عم القلق والهلع النفوس .

حتى إذا ما انتشر الخبر بأن رشيد قد هزمت الحملة الانجليزية وردتها على أعقابها بعد ان قتلت قوادها وجمعت عديداً من الأسرى واستولت على ذخائرها وعتادها ، عند ما انتشر هذا الخبر ما كان ليصدقه احد ؛ وقد تسلطت الأوهام على النفوس والعقول.

ولكن أولئك القرويين الأبطال الذين حاربوا فى صفوف جيرانهم من أهل رشيد عند ما رجعوا إلى بلادهم، حملوا معهم أخبار هذه البشرى ، وحوادث ذلك النصر المبين بحيث لم يدعوا للحدس والمكابرة مجالا ، وسرعان ما انتشرت هذه الأخبار شرقا وغربا وجنوبا ، فهلل الناس وكبروا لها ، وأصبح اسم رشيد مقرونا بالبطولة وموسوما بالعزة والكرامة .

أما فى رشيد فكان ذلك اليوم من الأيام المشهودة ، فلما جاء المساء كانت شوارع المدينة فى هرج وصخب، وكانت نوافذ البيوت والشرفات يحتلها الأطفال وتزينها الفتيات والنساء يزغردن للجنود البواسل الذين حموا العرين وذادوا عن حوضهم بإيمانهم وسنانهم .

وبعد الصلاة اجتمعوا للعشاء احتفاء بهذا النصر ، وقد نحرلهم ستون خروفا وشىء كثير من الأوز والدجاج ! نعم هى تلك الوليمة التى أعدها القنصل الانجليزى لرجال الحملة من أبناء جلدته ، ولكن شاء العدل الالهى أن يستمتع بها من هم أهلها ، فباتت رشيد فى تلك الليلة مفتوحة العيون مثلجة الصدور مرفوعة الرءوس زهوا وكرامة.

* * *

وفى بيت نقيب الأشراف، اجتمع أعيان المدينة ووجوهها ، واجتمع بهم محافظها وضباطه البواسل يتشاورون فيما هم صانعون بعد هذا النصر الذى لم يملأ رؤوسهم كبرا وخيلاء فلم يدفعهم إلى التواكل ، لأنهم يعلمون تمام العلم بأن هؤلاء الذين هزموهم بالأمس سوف لا يطأطئون الرؤس ولا يرضون بأن يعودوا إلى بلادهم يحملون ثوب الذلة والانكسار ، فوراءهم أسطول عظيم سدت سفنه الخمس والعشرون ميناء الاسكندرية الكبير ، وحمل على متنه ستة آلاف من الجنود الأشداء .

اجتمع الأمر على أن تستعد رشيد للجهاد من جديد بعد أن منحها عدوها

وسام البطولة ونفخ النصر فى نفوس أبنائها وبعد ان غنموا الكثير من معدات الحرب الحديثة التى كانوا خلواً منها بالأمس .

ثم إن «السيد حسن الكريت» أرسل كتبا جديدة إلى البلاد المجاورة ، وإلى العربان ، كما ارسل كتابا إلى السيد «عمر مكرم» نقيب الأشراف والزعيم الوطنى فى القاهرة ،وبعد أن انتهى من كتابته قرأه على أعضاء الديوان وختمه بقوله :

«..إن الانجليز لما حضروا إلى رشيد ، وحصل لهم ماحصل من القتل والأسر ، رجعوا خائبين ، وحصل لباقيهم غيظ عظيم ، وهم شارعون فى الاستعداد للعودة والمحاربة ، والقصد أن تسعفونا وتمدونا بإرسال الرجال المحاربين ، والأسلحة ، والجبخانة بسرعة وعجل ، وإلا فلا لوم علينا بعد ذلك ، وقد أخبرناكم وعرفناكم بذلك» .

وانفض الجمع فى ساعة متأخرة من الليل بعد أن سلموا هذه الكتب إلى الحراس الذين عهدوا إليهم بحمل الأسرى وعددهم نحواً من مائة وعشرين أسيراً ، وضعف هذا من الجرحى ؛ كما أرسلوا رؤوس القتلى وعددهم مائة وسبعون قتيلا إلى القاهرة كما جرت بذلك العادة ، ليكون ذلك شاهداً على ما أبلوه فى قتالهم ، ولكى يكون ذلك حافزاً لأهل القاهرة على القيام فى وجه هذا العدو المغير ، ودليلا على أن الشعب الذى لا يرضى بالذل والعبودية بل يضحى بحياته رخيصة لا يمكن لقوة من القوى أن تعتدى عليه .

وفى صباح الغد أقلعت هذه القافلة النيلية على مياه فرع رشيد قاصدة القاهرة .

ولما بلغت القاهرة أخبار هذا النصر ، باتت تلك الليلة فى فرح شامل ، واجتمع وجوه المدينة فى بيت القاضى، وحضر هذا الديوان السيد عمر مكرم وكبار علماء الأزهر ورؤساء الجيش يتشاورون فى أمر القتال ؛ فأرسلوا مكتوبا إلى محمد على باشا الذى كان إذذاك غائبا فى الصعيد، وكان محمد على يرى أن يقضى أولا على دعاة الفوضى ليوطد أركان الأمن فى البلاد التى عمها الاضطراب وسادت فيها القلاقل حتى أصبحت هدفا للطامعين ؛ إذ ان الشعب الذى ينقسم زعماؤه على أنفسهم تتبدد كلمتهم ويصبح أمرهم فوضى بينهم حتى يطمع فيه جيرانه .

وفى يوم الأحد وصل الأسرى إلى بولاق، فلما انتشر الخبر بين أهل القاهرة هرعوا إليها احتفاء بالمنتصرين، فترك الناس أعمالهم وأغلقوا متاجرهم واصطفوا على جانبى الطريق من بولاق إلى باب النصر ؛ فسار الركب على الأقدام حتى وصل إلى الأزبكية ، وكانت إذ ذاك بركة للنزهة ، وهناك ضربوا المدافع وأطلقوا السواريخ ، ومن هناك ساروا إلى القلعة بعد أن أركبوا الضباط من الأسرى حميراً لضعفهم وهزالهم .

وما أن انتهى هذا العرض حتى عاد أهل القاهرة إلى ما كانوا عليه من التأهب للقتال ، فكانت الائمة تخطب فى المساجد تلهب حماس المصلين ، وأصبحت الاسواق مجالس للبحث والمشاورة وانصرف الناس إلى جمع السلاح وإلى تحصين المدينة .

ومع أن محمد على كان غائبا فى الصعيد ولم تبلغه بعد أخبار هذه الحرب ، إلا أن الشعب كان غير متواكل فى أمر الدفاع عن نفسه ووطنه ، فكل فرد من أفراده كان يحس بأن واجب الدفاع فرض عين لا يسقط عن القادر عليه .

* * *

وفى اليوم التالى ذهب السيد عمر مكرم إلى الجامع الازهر ، فاجتمع حوله ألوف من الطلاب وغيرهم من سكان ذلك الحى ، فناشدهم ترك دروسهم والانصراف إلى شئون الدفاع والحرب فاستجابوا له وهرعوا جماعات إلى بولاق وإلى باب الحديد للعمل فى حفر الخنادق وتحصين المدينة .

وكان السيد عمر مكرم لا تفتر له عزيمة ولا يهدأ له قرار ، وكان العلماء يقفون جنبا إلى جنب مع رجال الجيش ، والتزم التجار بأجور الفعلة الذين يعملون فى حفر الخنادق وإقامة المتاريس ، فكان الواحد منهم يدفع أجرة خمسين عاملا بل قد ينقد مائة رجل من ماله الخاص وهو راضى النفس .

وبينما كان السيد عمر يراقب سير العمل فى هذه الخنادق وردت إليه رسالة من السيد حسن كريت يخبره فيها بأن الانجليز قد عاودوا الكرة عليهم ، بل جاءوا هذه المرة للانتقام من أهل رشيد لما منوهم به من فشل ذريع ، وانه يستنجد بأهل القاهرة للوقوف إلى جنبهم فى رد هذا العدو .

فلما سمع الناس أمر هذه الرسالة تقدموا جماعات للسفر إلى رشيد وحملوا ماديهم من سيوف وبنادق ، ولم ينتظروا أوامر شيوخهم بل سارعوا إلى بولاق

واكتروا القوارب إلى رشيد وهم يهللون ويكبرون وقد تملكهم الحماس الشديد .

***

وفى ذلك اليوم نفسه كان الجنرال فريزر قائد القوات الانجليزية يرأس مجلسا حربيا على إحدى سفن الاسطول الانجليزى المحاصر للاسكندرية ، وقد هاله ما أصاب رجاله من فشل وخاف أن تكون هذه الهزيمة قد أثرت فى نفوس رجاله وأضعفت من عزائمهم، فأقسم أن لينتقمن لقواده الذين أهدرت دماؤهم حول رشيد، وأن يدك هذه المدينة من أساسها ليكون ذلك عبرة لمن اعتبر .

ففى اليوم الثالث من ابريل أنفذ الجنرال فريز جيشا جديداً مكونا من أربعة آلاف مقاتل جهزهم بالمدافع والذخائر تحت إمرة قائد من أحذق قواده وهو الجنرال «استيوارت» .

سار هذا الجيش الكبير إلى رشيد حتى وصل إلى قرية «الحماد» فهرب الناس منها ، ثم وصل بعد ذلك إلى تلال أبى مندور ، وهى لاتبعد كثيراً عن رشيد ، فركب مدافعه على هذه الاكام ليضرب منها المدينة .

وكان أهل رشيد قد أخذوا عدتهم وتحصنوا ببيوتهم عند ما علموا من أمر هذا الجيش ، ولم يصبح اليوم السابع من الشهر حتى فتحت المدافع الانجليزية أفواهها وأخذت تضرب المدينة، فكانت البيوت تتساقط فيخليها السكان إلى جوارها وكانت الحرائق تشب هنا وهناك ، وأصبح السير فى الاسواق خطراً أكيدا خوفا من سقوط الحيطان على السائرين .

ولكن أهل رشيد البواسل لم يفزعهم ذلك ولم يتملكهم الرعب بل ثبتوا وراء جدران مدينتهم التى أخذت تبدو أطلالا وخرائب تعافها العين .

* * *

قر الرأى على أن يوكل إلى الوالى وحده أمر تنظيم الجيش لمحاربة الانجليز لما فى ذلك من ضمان لتوحيد الجهود ، إذ أن الغارات المتفرقة التى يقودها رجال لم يعدوا أنفسهم لفن الحرب ، مهما كانت شجاعتهم ورغبتهم الصادقة ، لا تجدى فى الوقوف أمام جيش منظم مدرب موحد الكلمة .

ولم يمض يوم أو بعض يوم حتى تم تجهيز الحملة المصرية وكان قوامها أربعة آلاف مقاتل ، مكونة من فرقتين يقود الاولى « الكتخدا » نائب محمد على ويقود الثانية «حسن باشا طاهر» . ومع ما كانت فيه القاهرة من الفوضى والكساد بسبب هذه الحروب ، فقد تمكن السيد عمر مكرم من أن يجمع نحو ألف كيس للإنفاق على هذا الجيش .

سار الجيش المصرى إلى رشيد وكان جيش حسن باشا يسير حذاء الشاطىء الشرقى وجيش الكتخدا على الشاطىء الغربى حتى عسكر عند قرية « برنبال » وكان جنود الفرقتين يشاهد بعضهم البعض .

وفى تلك الاثناء كانت المدفعية الانجليزية لاتفتر عن ضرب رشيد بقنابلها فأصبحت بيوتها كومة من الخرائب ، ولكنها مع ذلك لم تسلم ، ولم تحن رأسها

للأجنبى ، حتى ان القائد الانجليزى أرسل إلى قائده العام فى الاسكندرية ينبئه بفشله فى احتلال رشيد، مع ما ألحقه بها من الاضرار البالغة ، إذ أنه أطلق عليها من مدافعه البعيدة المرمى وحدها نحواً من ثلاثمائة قنبلة . وكأن أهل رشيد ما كان لتزلزلهم المصائب التى نزلت بهم .

* * *

وفى صباح اليوم العشرين من شهر ابريل سنة ١٨٠٧ ، بدأ « حسن باشا » فى مهاجمة الجيش الانجليزى المرابط فى الحماد فأنفذ إليه فرقة من فرسانه ، وكانت إحدى فرق الجيش الانجليزى معسكرة فى بعض المزارع ، فما أن رأى رجالها هذا الهجوم المفاجىء اكتشفوا ما عليه الفرسان المصريون من براعة وحذق ، حتى دب الرعب فى نفوسهم قبل أن يلتحموا بهم ، فلما أرادوا التقهقر للانضمام إلى رفاقهم فى الحماد انقض عليهم الفرسان المصريون وأحاطوا بهم فوقعت الفرقة جميعها ما بين قتيل أو أسير .

فلما بلغت هـــذه الأخبار إلى الجنرال استيوارت تبينت له حقيقة الجيش المصرى لاسيما الخطر الجاثم فى فرسانه فأرسل مدداً قويا إلى جيشه فى « الحماد » نظراً لما عليه هذه القرية من أهمية حربية ، إذ أن الاستيلاء عليها يقطع الطريق إلى رشيد والى الاسكندرية .

وبينما كانت القوات الانجليزية تتجمع على هذا النحو ، كان جيش الكتخدا يعبر النيل ليلا وينضم إلى جيش حسن باشا . فلما أصبح الصبح ذعر الانجليز

« وراح الفلاحون يقبلون يد إبراهيم امتنانا وشكرا .. »

« فى طريق أثينا »

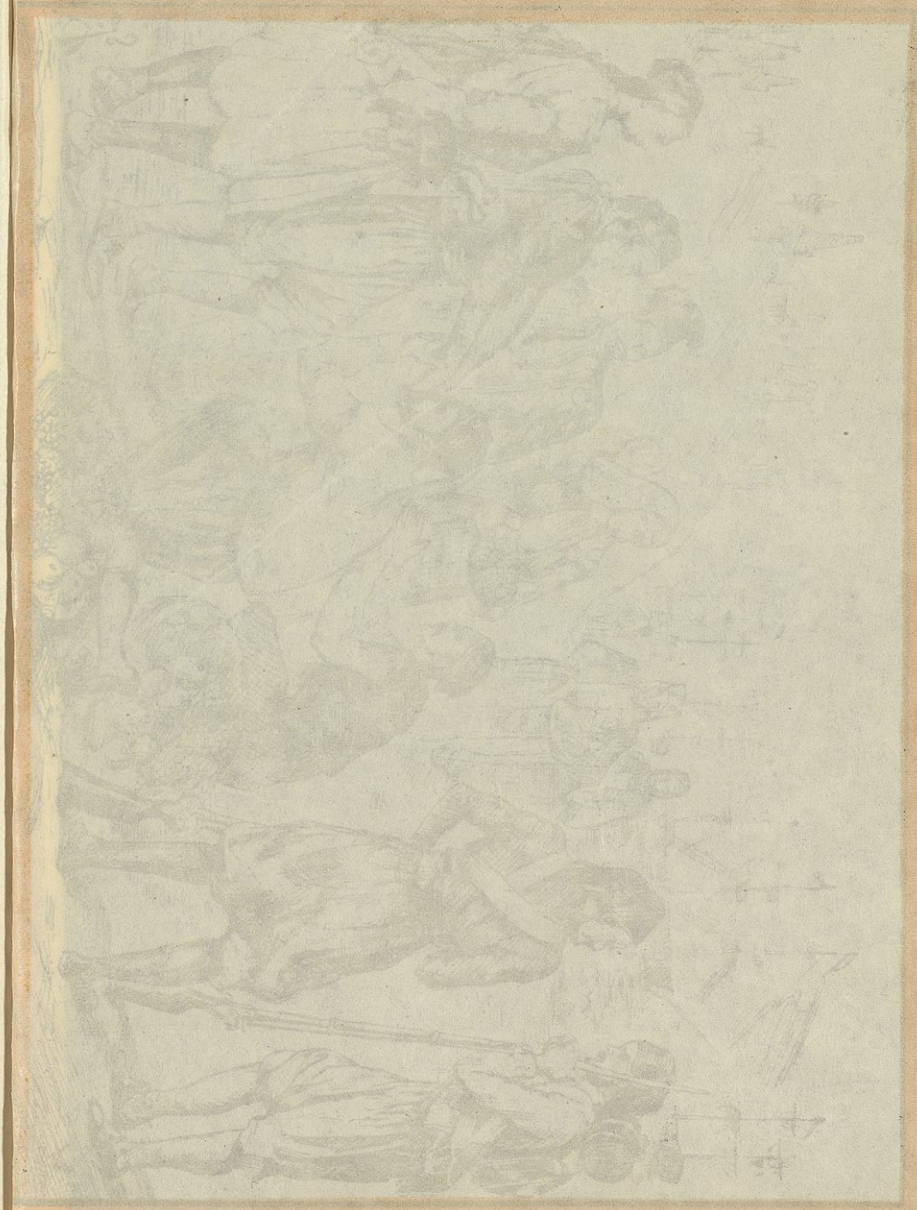

عندما وجدوا تلك السهول قد غطتها صفوف الفرسان بملابسهم الزاهية وأسلحتهم التى كانت تلمع فى نور الصباح ، وامتلأ بهم المكان حتى مدى البصر .

فأسرع الكولونيل «ماكلود» يطلب نجدة ثانية من قيادة الجيش عند رشيد، ولكن المصريين حالوا بينه وبين هذا المدد ، وعندما حاول الكولونيل أن ينسحب بقواته ، انتهز المصريون الفرصة وانقضوا على فرقه الثلاث واحدة إثر واحدة ، وأمطروهم بوابل من رصاص البنادق فقتل معظم رجال فرقة القلب ،وكان ممن قتل الكولونيل نفسه . وكذلك فعلوا بجناح الميمنة فقتل قائده ، ولم ينج من رجاله سوى خمسون ما بين ضابط وجندى وقعوا أسرى فى أيدى المنتصرين .

أما الجناح الايسر فلم يتمكن من المقاومة، بل لم يتيسر له الهرب فوقع ورجاله أسارى فى يد المصريين . فبلغ ما أسره المصريون أربعمائة انجليزى ، ووقع أكثر من هذا قتيلا .

وفى الساعة العاشرة اكتمل النصر للجيش المصرى بعد معركة دامية دامت ثلاث ساعات متواليات ، أبلى فيها الفرسان المصريون بوجه خاص بلاء عظيما كان سببا فى تخاذل أعدائهم ، ودفعهم ذلك إلى الهرب فالتسليم .

وبعد ساعات قليلة كانت أخبار هذه الهزيمة المنكرة قد وصلت إلى آذان الجنرال «استيوارت» عند رشيد فنزلت على نفسه نزول الصاعقة،ووجد أنه عاجز عن أن يواصل القتال كما عجز عن فتح رشيد ، فقرر الانسحاب إلى الأسكندرية قبل أن

يتابع الجيش المصرى تقدمه ويقضى على بقية جيشه .

رفع القائد الانجليزى الحصار عن رشيد ، وجمع رجاله وتأهب للانسحاب على وجه من السرعة ، فأعمل التخريب فى مدافعه ومعدات القتال الثقيلة التى لم يمكنه حملها معه فتركها وراءه ، واستقل السفن عند أبى قير إلى الاسكندرية ،ومن هناك أقلعوا باسطولهم إلى صقلية عائدين خائبين .

وكان اليوم التاسع والعشرون من ابريل من الأيام المشهودة فى القاهرة ، فقد وصلت إلى بولاق المراكب مشحونة بأسرى الانجليز وعددهم نحواً من خمسمائة أسير بينهم عدد من قواد الجيش ، فاحتشدت جموع أهل القاهرة يشاهدون هذا الموكب فى طريقه إلى القلعة ، وكان ابتهاج محمد على عظيما بما أبلاه الجيش المصرى فخلع الهدايا من الملابس والأموال على الرسل وعلى رجال الجيش .

وهكذا بدأت القاهرة عهداً جديداً من الأفراح .

فقد رأى الانجليز أن مصر ليست لقمة سائغة يسهل ازدرادها ، وأن الفشل مرة أو الهزيمة لاتدفع شعبا كهذا الشعب إلى أن يبيع كرامته رخيصة،وأن القومية المصرية لا تطفىء جذوتها قوة الحديد والنار .

وهكذا قرر الانجليز الانسحاب عن مصر بعد أن قضوا فى ربوع وادى النيل ستة أشهر ذاقوا فيها الفشل مرة إثر مرة ، وشاهدوا أن بطولة الفلاح وحماس الرجل العادى إذا دعا الداعى للجهاد ليست أقل عنفا من بطولة رجال الجيش نفسه أولئك الذين وهبوا أنفسهم للوطن وجعلوا حياتهم قربانا فى سبيل حريته .

فى طريق أثينا

كان الصيف فى تلك السنة شديد القيظ لم تألفه القاهرة ، وكان الناس يخرجون فى كل مساء للترويح عن أنفسهم حول بركة الأزبكية فيستأجرون القوارب ويطعمون ويشربون إلى أن تهدأ لوافح الحر فيعودون أدراجهم إلى البيوت .

وفى الثالث من شهر ذى القعدة وصل إلى القاهرة بعض العربان القادمين من الشام ، وكانوا يعملون فى توصيل الحجاج من مصريين وسوريين إلى السويس للسفر منها إلى مكة ؛ جاء هؤلاء الأعراب إلى القاهرة فرووا قصصاً تناقلها الناس وأشاعوها فى كل مكان ؛ فهاجت الخواطر لها واضطربت لها النفوس ، وكنت لا تسمع فى ذلك اليوم إذا ما سرت فى أسواق القاهرة إلا أخبار هذه الروايات المفجعة .

ذكر هؤلاء الأعراب كيف أن الأروام ـ وأكثرهم ممن يمتهنون اللصوصية والقرصنة ـ هاجموا بقواربهم سفينة كبيرة عائدة من اسطنبول إلى الإسكندرية وعليها مئات من الحجاج العزل الذين كانوا لا هم لهم ولا رغبة إلا الوصول إلى بيت الله الحرام . هجم هؤلاء الأروام السفاحون على السفينة الآمنة واعترضوا طريقها بعد أن أوهموا ربانها التركى بأنهم يطلبون منه العون والمساعدة ؛

فما أن اقتربت منها قوارب اليونانيين الغادرة حتى قذفوها باللهيب والنار ؛ فلما عم الهرج والمرج بين ركابها ظهر هؤلاء اللصوص من مخابئهم وراحوا يقتلون الشيوخ ويلقون بالأطفال والصغار فى البحر ويقيدون النساء ويسلبوهن ما يحملن من الحلى بفظاعة ووحشية . ومع أن البحارة والمسافرين من الرجال دافعوا دفاعا مجيداً عن أنفسهم وعن أعراضهم إلا أنهم وقد أخذوا غدراً لم يتمكنوا من دفع هؤلاء المتربصين الأنذال ، وهكذا رجع الأروام ومعهم بضع عشرات من نساء وأطفال المسلمين أخذوهم أسرى ، وليس أمامهم إلا أن يباعوا رقيقا ، وأن يعيشوا عبيداً وأكثرهم من أبناء الأعيان والكبار .

والأدهى من ذلك أن قاضى عسكر مصر ، وكان مسافراً على هذه السفينة المشئومة مع أهله وأولاده لاقى حتفه على يد هؤلاء السفاكين ، وكان نصيب زوجته وبناته وأولاده القتل كذلك ، دون جريمة ارتكبوها أو ذنب اقترفوه .

شاعت هذه الأخبار فى القاهرة فكان لها تأثير سيء فى النفوس؛ إذ أن هؤلاء اليونانيين من رعية السلطان ، وكانت بلادهم تعيش فى رغد من العيش بفضل الحكم العثمانى فيها ، وكانت أمامهم بلاد الامبراطورية التركية من البحر الأسود إلى تونس مفتوحة الأبواب يتاجرون فيها ، ويجمعون الثروات العريضة . وكان محمد على

والى مصر يعطف عليهم ، فازدهرت تجارتهم فى وادى النيل وتمتعوا بالعدالة والأمن والسلام مما لا يعرفونه فى بلادهم نفسها ، حيث قطاع الطرق يعتدون على أرواح المسافرين ، والقرصان يهجمون على السفن فى البحر .

مع كل هذا أنكر الأروام صنيعة الباب العالى وتناسوا فضل والى مصر الكبير عليهم وراحوا يعيثون فى البحر فساداً ، فكانوا يختبئون بمراكبهم وقواربهم بين الجزر والصخور ؛ حتى إذا مرت بهم سفينة مصرية أو تركية هاجموها غدراً وعمدوا إلى إحراقها بعد نهبها وسلبها .

وبعد أسبوع من ذلك التاريخ ، شاع فى القاهرة أن الباشا سافر إلى الإسكندرية ، وأنه جاد فى إعداد حملة لتأديب هؤلاء اللصوص المتجنين .

وحقيقة الأمر أن السلطان محمود أرسل إلى الباشا المصرى يطلب منه أن يمد يد المساعدة إلى دار الخلافة ، بتأديب هؤلاء العصاة المتمردين الذين لم يكتفوا بالاعتداء على السفن والمسافرين فى البحر بل أضرموا نار الثورة والعصيان فى بلادهم نفسها ، فراحوا يقطعون الطرق ويحرقون الجوامع ويتحينون الفرص للفتك بالمسلمين ، وكانوا فوق ذلك يستخدمون أفظع الأساليب الوحشية فى معاملة الأسرى حتى أنهم فتكوا بقرية آمنة ولم يتركوا فيها طفلا رضيعا دون أن يعملوا فيه السيف ، فلما أن انتهوا من مجازرهم حرقوا القرية حتى أصبحت قاعا صفصفا ما بين يوم وليلة .

ذهب الباشا إلى الإسكندرية وفى اليوم التالى زار الترسانة الأميرية وتفقد أحوالها ؛ وكانت بها فى ذلك اليوم إحدى وعشرون سفينة حربية كادت تستكمل عدتها ؛ أما فى القاهرة فكانت الحركة دائبة فى القلعة حيث كان إبراهيم يستعرض الفرق العسكرية من مشاة وفرسان . حتى إذا تم له تنسيقها صرفت لهم الكساوى الشتوية مع أن الوقت كان صيفا وحرارة القاهرة لا تطيقها الأجسام العارية .

وفى اليوم الموعود لسفر هذا الجيش؛ انحدرت فرقه من بوابة القلعة الكبرى بينما تجمعت الجموع فى ميدان صلاح الدين وتسلق الصبيان الأشجار وجدران مسجد السلطان حسن ، وأقفل التجار دكاكينهم واصطف أهل القاهرة على جانبى الطريق من القلعة إلى بولاق حيث سارت هذه الفرق فى موكب حافل فاخر يأخذ بالألباب إلى أن وصلت إلى ميناء بولاق ، وهناك نقلت المدافع والذخيرة والعتاد فى المراكب إلى الإسكندرية .

فى ضحى يوم ٢٠ يوليه ١٨٢٤ شاهدت الإسكندرية يوما من أروع أيامها إذ كان ذلك موعد سفر الحملة المصرية إلى بلاد اليونان ، لتأديب هؤلاء العصاة الفجرة الذين لم يرعوا حقا ولا ذمة ، والذين نكثوا العهود ونقضوا المواثيق ، واستباحوا ما حرمته الشرائع من سلب ونهب واعتداء على نفوس الآمنين .

كان الناظر إلى شاطئ الإسكندرية يرى صفا من السفن الحربية والنقالات

يمتد بضعة أميال يرفرف عليها العلم المصرى ؛ كان هذا هو الأسطول المصرى الذى أنفذه محمد على للقضاء على الثورة اليونانية ، وكان قوامه مئتى سفينة ما بين حربية وسفينة نقل ، اعتلى متونها أكثر من عشرين ألف مقاتل ما بين مشاة وفرسان ومدفعية وملاحين ومهندسين وصناع وجميعهم من المصريين ، وأكثرهم من الريفيين الذين كانوا يعيشون فى أقصى الصعيد يحرثون الأرض أو يرفعون الماء بالشواديف ، وها هم اليوم على ظهر ثانى أساطيل العالم ، وفى طريقهم إلى أوربا لتأديب بعض شعوبها !

فى وسط هذا المعمعان وفى خضم هذا الضجيج وهذه الحركة الدائمة ، اجتمع فى إحدى قمرات سفينة الأميرالية ثلاث رجال حول مائدة مستديرة نشرت فوقها الخرائط ، وكان الحديث بين الثلاثة مع خطره هادئا رزينا ، وكانت نبرات المتحدثين تنبىء عن جسامة المهمة التى يضطلعون بها .

جلس فى صدر المكان رجل ممتلىء الجسم قصير القامة واسع العينين عالى الجبهة ذو لحية قصيرة علا بعض شعراتها الشيب ، وكانت عيناه البراقتان تنتقلان بسرعة فائقة بين محدثيه ، حتى إذا أرهف سمعه إلى كلامهما أمعن الفكر فيه قبل أن يبدى موافقة أو اعتراضا .

كان هذا هو إبراهيم باشا ابن محمد على ، القائد العام للحملة المصرية فى اليونان ، وكانت هذه الرحلة البحرية أول حملة عسكرية له على مياه

البحر الأبيض ، ولكن قاهر الوهابيين كان مثله فى ذلك مثل نابليون الذى توج انتصاراته الأولى فى أوربا بحملة بحرية إلى الشرق ، وها هو ذا القائد الشرقى يتوج انتصاراته الأولى بحملة بحرية إلى أوربا .

وكان ثانى المؤتمرين رجل تدل ملامحه على أنه من رجال البحر ؛ وكان هو بالفعل الأميرال إسمعيل بك أبو جبل القائد البحرى للحملة .

إما ثالث الثلاثة فكان شيخا طاعنـاً فى السن ، يرتدى سروالا أسود فضفاضا مما عرف عن أهل الإسكندرية وكان حديثه ينم عن ذكاء وفطنة ، وإن كان تنقصه البراعة فى توضيح رأيه ؛ كان هذا الرجل « الحاج عمر » مراقب ترسانة الإسكندرية وهى الترسانة العظيمة التى بنيت فيها هذه العمارة البحرية . وكان إبراهيم باشا يستمع إلى الحاج عمر باهتمام واضح ، لغيرته الشديدة وفرط ذكائه الذى رفعه ، مع أنه كان يجهل أصول الهندسة النظرية ، إلى أن أصبح كبير المعماريين فى الترسانة .

وقبيل إقلاع الأسطول المصرى قدم محمد على لتوديعه ؛ فلما التقى الأب بالإبن صافحه وهز ذراعه هزاً وربت على كتفه وتلفت إلى من حوله وقال :

— إذا ما نزلت يا بنى إلى بلاد اليونان وحالفك النصر ـ ولا شك أنه حليفك ـ فاعلم أنك لا تقاتل حبا فى سفك الدماء ولا رغبة فى انتقام ولكن فى سبيل العدالة ؛ إن عدوك كل ثائر يرفع السلاح فى وجهك ، ولتذكر أن

الإسلام دعا إلى العدل والإحسان فلتعمل على أن تطبع فى نفوس رعاياك الجد الحب، وأنك لم تأت لحربهم بل لتهدئ ثورتهم ؛ فلا تقتل مسالما ولا أسيراً ولا تنتهك حرمة امرأة ولا تنكل بشيخ ولا بطفل ولا تهدم كنيسة ولا تحرق زرعا ؛ هذه وصيتى إليك وهى وصية الإسلام . . »

وما إن عاد محمد على إلى الشاطئ ؛ حتى نفخ فى الأبواق وحلت مراسى السفن ونشرت الأشرعة وعلا الهتاف ، وانطلقت سفائن الأسطول المصرى باسم الله مجراها ومرساها متجهة صوب جزيرة كريت .

مضت خمسة أشهر والأسطول المصرى يجوب مياه البحر الأبيض ما بين قبرص وكريت ورودس وسافز ومدللى ، وكانت وحداته تنطلق شرقا إلى ساحل الأناضول وتندفع شمالا إلى الدردنيل ومن ثم تعود فتجوس خلال مياه الجزر التى ترصع هذا البحر !

لقد جاء إبراهيم لينشر الأمن والسلامة على البحر بعد أن أصبحت جزره وخلجانه وكراً للصوص والقراصنة من اليونان ، وكانت أساليبهم معروفة عند إبراهيم ؛ إذ كانوا يعتمدون على الخداع والتضليل فلا يهاجمون إلا السفن المنعزلة أو يرسلون حراقاتهم لتقترب من سفن اعدائهم حتى إذا هبت الريح تركوها تندلع من سفينة إلى سفينة وهم فى خلال ذلك يعملون النهب .

لقد ضجت أوربا المسيحية من أعمال اليونانيين ، إذ ليس للصوص

والقراصنة دينا غير السلب ، وفى سبيله يستبيحون الحرمات . وكانت سفن فرنسا وانجلترا وروسيا والنمسا لا تدلج فى هذا الجانب من البحر الأبيض إلا فى حماية السفن التركية التى كانت تعرف أسراره، أو بعد أن يدفعوا أتاوة لبعض القراصنة من اليونان أنفسهم ؛ بل كان هؤلاء اليونان بعضهم حربا على بعض فكانوا يتقاتلون على أرض الوطن كما كانوا يتناحرون على مياه البحر ، وكان ملاحو السفن يتنقلون بين الأحزاب كما كان يتنقل الجنود المرتزقة فى القرون الوسطى بين جيوش الأقطاع . .

ولما وصلت أنباء هذه الشهور الخمسة إلى أوربا علت حكوماتها الدهشة ، فما كانت لتظن أن إبراهيم قاهر الصحراء يحالفه هذا الفوز على مياه البحر الذى لم يألفه من قبل ؛ وكيف به وهو لا يحارب أسطولا بحريا منظما ؛ بل مئات من سفائن القرصان التى يملكها أصحابها والتى لا هدف لها إلا السلب ، وهى فى ذلك لا تراعى قانونا ولا رحمة ولا إنسانية ! ؟

* * *

فى فجر يوم ماطر من أيام شهر فبراير استيقظ أهل ميناء « مودون » فى الطرف الجنوبى لبلاد اليونان ليجدوا الأفق وقد ارتفعت فيه سلسلة متراصة من السفن ؛ فأسرع القائد التركى « وسيم بك » وجمع فلول قواته التى تعسكر فى المدينة وطفق ينتظر حتى يتفتح الصباح ليعرف حقيقة أمر

الأسطول المحاصر للميناء ، وهى آخر ما بقى من ثغور اليونان فى قبضة السلطان .

استعد وسيم بك لا للدفاع لأن ذلك كان مستحيلا ، ولا للتسليم لأن ذلك مشين فى حق التقاليد العسكرية بل لكى يقضى على نفسه ورجاله بعد أن يخرب الميناء حتى يستحيل على الجيش المغير النزول إلى البر .

ولكن هذه الغمة سرعان ما انكشفت عند ما جاء إلى قلعة مودون أحد الصيادين وأفضى للقائد التركى بحقيقة هذا الأسطول ، فما إن سمع أن نحواً من مئتى سفينة يخفق عليها العلم المصرى هى التى تسد الأفق أمامه حتى تهلل وجهه فرحا ، وأيقن أن عهداً جديداً لليونان قد بدأ فى هذا الصباح ؛ فقد كانت انتصارات إبراهيم وهو يجوب بحر الأرخبيل تصل إلى هؤلاء المحصورين من الأتراك بين هضاب المورة ، بعد أن فتكت بأكثرهم عصابات الثوار .

وطئت قدم إبراهيم أرض أوربا ، كما وطئت من قبل أرض آسيا فكان النصر حليفه والتوفيق رائده ، ونزل المصريون إلى البر ففتحوا بذلك صفحة جديدة فى تاريخ مصر منذ عهد السلطان الأشرف حين كانت الفتوحات المصرية تمتد إلى قبرص وكريت . وما أن انقضى اليوم حتى كانت الجيوش المصرية قد نصبت خيامها فى سفح المدينة وراح الفرسان يروضون جيادهم التى هد عزيمتها ركوب البحر . وعند ما أمسى المساء أضيئت المشاعل وأقيم عرض عسكرى بهر أنظار الفلاحين الذين تدفقوا على المدينة من القرى المجاورة ، وما أن أذن المؤذن لصلاة العشاء

حتى رجع إبراهيم إلى خيمته وجمع حوله قواده استعداداً للعمل منذ الصباح المبكر .

لم يكد الأسطول المصرى يطوى أشرعته حتى نقل عيون الثوار وجواسيسهم أخباره إلى الثوار الذين كانوا يحاصرون ميناء كورون ، ومن هناك انتقلت الأخبار إلى نافارين التى استولى عليها اليونانيون وحصنوها أشد تحصين .

وفى كهف منحوت فى بعض التلال المطلة على « نافارين » اجتمع رؤساء الثوار ؛ اجتمع كولوكتزونى ، وبترا كوا ، وكرايسكاكى ، وغيرهم ، أولئك الذين كانوا حتى بالأمس يتنابذون ويتناحرون منذ أن تدفق الذهب الذى جاء به اللورد « بايرون » الانجليزى على اليونان ، فأصبح هذا المال سوسا ينخر فى وحدة اليونان ، استولى عليه رؤساء الثوار باسم تحرير اليونان من الحكم التركى ، ولكنهم أفرغوه فى جيوبهم وانقلب كل واحد منهم فى وجه الآخر ؛ يرميه بالخيانة ويقذفه بأفحش التهم حتى أصبحوا وليس بينهم من لم يلوث اسمه وينكر عليه إخلاصه .

اجتمع أعداء الأمس وبينهم عدد من الرهبان ليصلحوا ما فسد من نياتهم ، واتفقوا على أن ينسوا الماضى وتعاهدوا على التكاتف فى وجه هذا العدو الجديد ، وانبرى من وسطهم يونانى من أهل كريت كان يعيش فى مصر واقترح أن يفتك بالقائد المصرى ، حتى إذا تم له ذلك وساد الفزع بين رجاله هاجمتهم العصابات قبل أن يجمعوا أمرهم ويأخذوا حيطتهم . .

ولاقى هذا الرأى صدى فى قلوب المؤتمرين ، وهم الذين لا يأنفون عن الاغتيال

والاغتصاب والغدر بل يعتبرون ذلك من شريعة الحروب ؛ ثم اتفقوا على أن يقسموا قواتهم إلى فريقين يحاول الأول أن يقطع الطريق على إبراهيم إذا ما تقدم صوب « نافارين » فإذا فشل كان فى انتظاره تسعة آلاف جندى عند أسوار هذه المدينة المنيعة .

لم يطل انتظار الثوار كثيراً ، إذ أن إبراهيم تقدم على رأس طلائع فرسان جيشه فى الطريق إلى كورون ، ففك حصارها وحمل الأقوات للمدينة الجائعة ولم يفرق بين يونانى وتركى ، ولم يتورع عن معاقبة من سولت له نفسه من الجنود الألبانية أن تمتد يده بالسلب والنهب أو الثأر ، ولم يكن أكثر شفقة بقطاع الطرق الذين كانوا ينشرون الرعب بين أبناء جلدتهم من الفلاحين .

وما أسرع أن انتشرت هذه الأخبار بين رعاة الأغنام وبين القرويين الذين اعتصموا منذ سنين برؤس الجبال هربا من إرهاق رجال العصابات ، وأخذوا سبيلهم إلى معسكر الجيش المصرى يقدمون الشكر لمن حباهم بنعمة الأمن .

سار إبراهيم غربا فى الطريق إلى نافارين . نعم لقد كان حدس الثوار صحيحا ؛ إذ أن نافارين هى الهدف الذى جعله القائد المصرى قبلته ؛ فأسرع الثوار وجمعوا جموعهم وكانوا ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل ، وكمنوا بين الصخور وفى الكهوف التى نخرتها الأمطار فى سفوح التلال ، وكان ذلك الكريتى

فى جملتهم وقد تزيى بزى الأتراك وعصب ذراعه اليسرى وتصنع المرض . حتى إذا اقتربت القوات المصرية من المضيق الذى كان يشرف عليه الثوار نزل الكريتى من مخبأه ، ثم طرح نفسه أرضا عند ما بدأ غمار الخيل يرتفع فى الأفق . .

ولكن القدر لم يشأ ما شاءه هؤلاء السفاحون ، إذ أن خبر مؤامرة الكهف قد انتقلت مع بعض الرهبان ممن عادوا إلى ديرهم ، وكان الدير فى طريق الجيش المصرى ، وكان كغيره من الأديرة لم يسلم من إغارة قطاع الطرق الذين يسلبون وينهبون بإسم تحرير اليونان ، حتى بات رهبانه فى شظف من العيش وفزع دائم من الثوار .

فلما أن بدت طلائع الجيش المصرى التزم الرهبان قعور ديرهم وأوصدوا الأبواب، فشمل المكان سكون مخيم حتى كان يظن من يمر به أنه خرب خلا من أهله ؛ فلما أمسى المساء نزلت الحملة للمبيت فى ظلال التل الذى أقيم الدير على رأسه ، وأخذ بعض الجنود طريقهم إلى الدير الذى ظنوه مهجوراً للاحتماء بجدرانه، وهنالك اكتشفوا الرهبان فى مخبأهم فقادوهم إلى مخيم إبراهيم ، الذى أحسن وفادتهم وأكرمهم وأمر بإرسال الأقوات والأطعمة وبعض الأغنام إلى الدير ، كما أمر طبيبه برعاية بعض مرضاهم .

لقد كانت تلك مفاجأة لم تصدقها أعين الرهبان ، بعد أن استقر الفزع

فى نفوسهم بفعل الشائعات التى كان يروجها الثوار عن إبراهيم ، عن بربريته ووحشيته ، وعن تعصبه الأعمى ، وعن غدره وخيانته ، وإنه ما جاء إلى اليونان إلا ليعمل السيف والنار فى أهلها ليقضى على دين المسيح !

باسم هذه الأكاذيب كان الثوار وأكثرهم من قطاع الطرق ولصوص البحر يجمعون المال من الفلاحين ويغتصبون النفائس من الكنائس .

ولكن سرعان ما بدت الحقيقة ماثلة فى عيون الرهبان الذين وجدوا فى إبراهيم إنسانية ورحمة وحبا للخير ، لا تملقا وزلفى كما يفعل بعض الغزاة بل طبيعة ويقينا ؛ فلم ترض ضمائرهم أن يغدروا بمن أحسن إليهم ، وأن يخونوا من أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف . فلما انبلج الفجر وهمت الحملة بمواصلة السير تقدم أحد الرهبان من مخيم إبراهيم وطلب المثول بين يديه ، فلما أذن له قدم إليه جرة صغيرة من زيت الزيتون هدية من الرهبان ، ثم أفضى له بسر المؤامرة التى دبرت لاغتياله ، فلما سمع إبراهيم ترجمة كلام الراهب لم يعبس ولم تثر ثائرته بل ابتسم ابتسامة طفيفة وأخذ ينكث بأصبعه وكأنه يستوعب ما قاله الراهب ؛ ثم وقف وصافح ضيفه وربت على كتفه عربونا لصداقته كما كانت عادته .

وهكذا فشلت المؤامرة لاغتيال إبراهيم ، ولكن ما انتشر خبرها بين الجنود حتى أعماهم السخط وثارت ثائرتهم . فلما اقتربوا من الحصن وتصدى

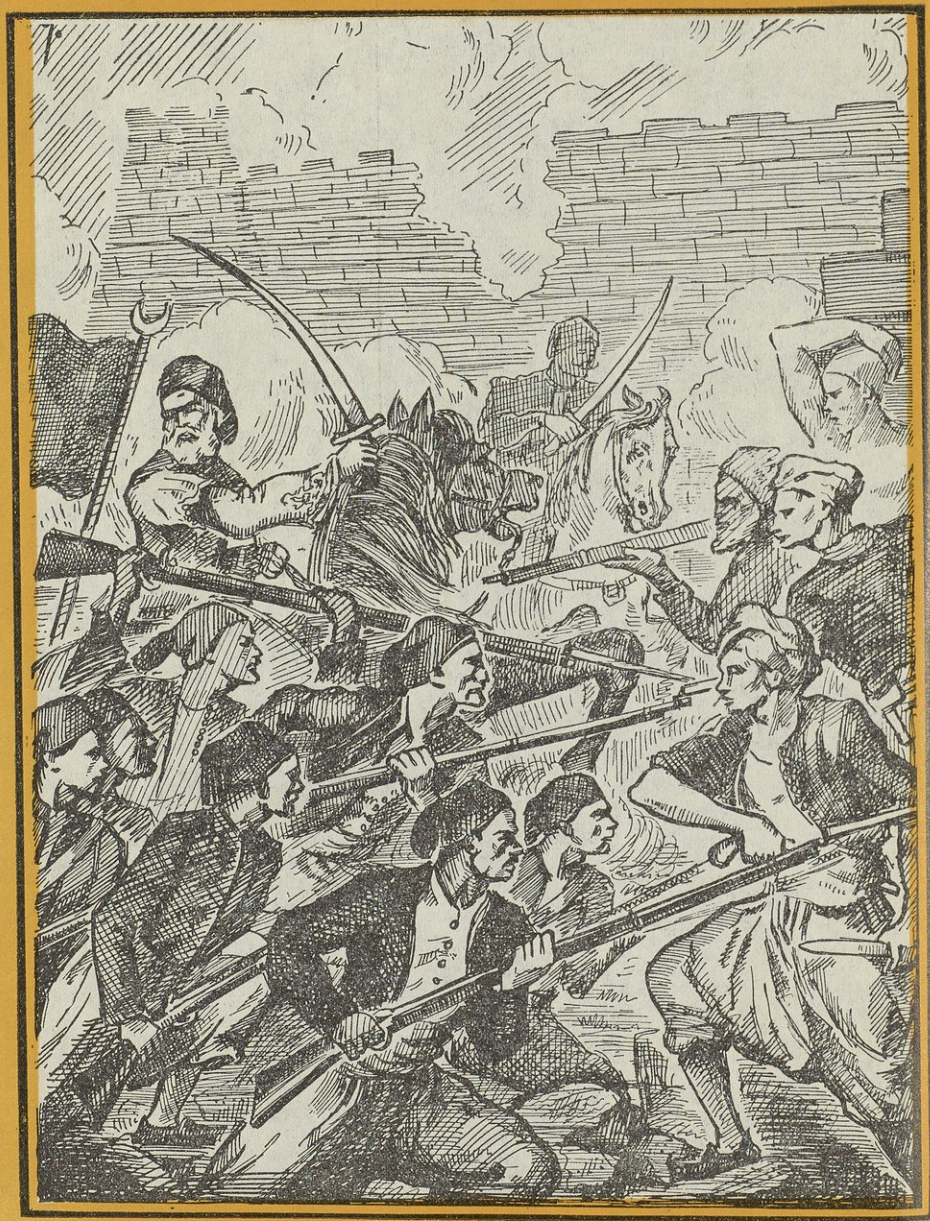

« فما كان من ابراهيم إلا أن اندفع الى مقدمة الفرقة ملوحا بسيفه فى الهواء »

« فتح عكا »

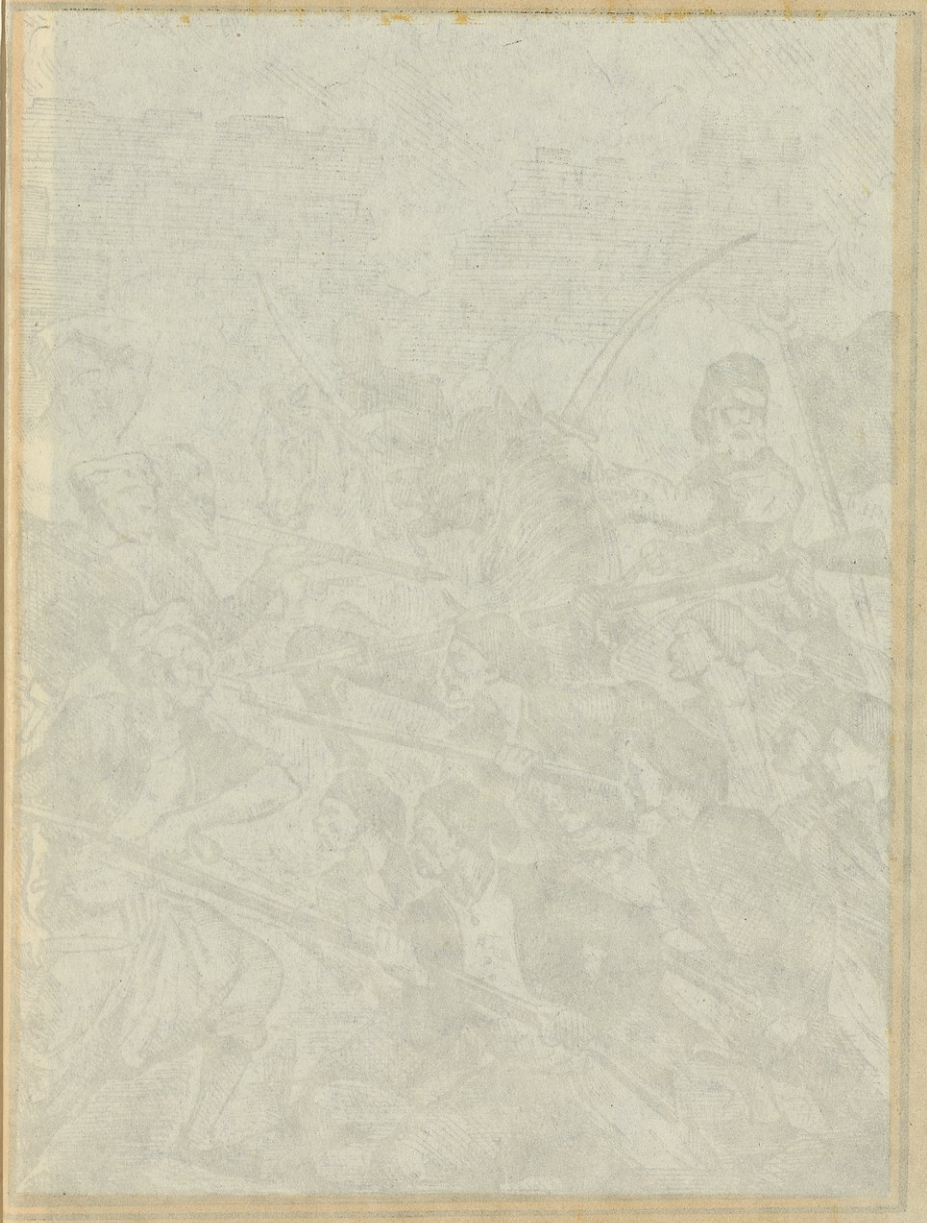

ذلك الكريتى لطلائع الجيش ، ألقى القبض عليه فى الحال وانتزع منه خنجره المسموم ، ومن ثم اندفعت جموع الثوار من الأغوار والكهوف إذ ظنوا أن المؤامرة نجحت وأن الاضطراب شاع بين الجنود ، ولكنهم بدلا من ذلك وجدوا أمامهم صفوفاً متراصة من الفرسان والمشاة أعملت فيهم النار والسيوف ؛ فلم تمض نصف ساعة حتى بدأت الهزيمة ترفع رأسها بينهم ، فوقع قائدهم فى الأسر ثم أسر من بقى منهم على قيد الحياة .

وهكذا انفتح الطريق إلى « نافارين » ذلك المعقل الحصين ؛ ولكن ما كاد الجيش المصرى يقترب من أسوار المدينة ويخندق حولها ، حتى جاءت الكشافة تروى أن جيشاً كبيراً من اليونانيين تبلغ عدته تسعة آلاف مقاتل فى طريقه لفك الحصار عن المدينة . فكان هذا وازعاً لابراهيم على الإسراع فى شق الخنادق وإقامة المتاريس ونصب مدافع الميدان ، وكان العمل يجرى فى الليل وتحت مياه المطر الدافقة وفى أضواء المشاعل ؛ وكان القائد المصرى ينتقل من مكان إلى مكان يحث رجاله على العمل ويشجعهم بابتساماته وكلماته .

أصبح الصباح وكان إبراهيم قد عقد مجلسه العسكرى فى ساعة متأخرة من الليل وقر القرار على أن يترك جانبا من جيشه يحاصر المدينة ، بينما يقوم هو على رأس رجاله للقاء الجيش اليونانى المتقدم . لقد كان الفرق شاسعا بين الجيشين ؛ جيش منظم متدرب لا يعرف إلا الطاعة والتضحية ، وجيش هو أخلاط من المقاتلين

أكثرهم من المرتزقة الذين يحاربون فى سبيل المال ولا يحفزهم على القتال إلا الرغبة فى السلب والنهب . .

أمر إبراهيم رجاله بالتقدم دون أن يطلقوا طلقة واحدة ، حتى إذا كانوا على مسيرة مائة متر ، أعطى الأمر فإذا بقرقعة كهزيم الرعد انبعثت من آلاف البنادق فحصدت صفوف اليونانيين الأمامية حصدا ، ثم أشرعت السيوف والأسنة من الجناحين واندفع الفرسان يطوقون عدوهم ولا يتركون له فرصة للفرار من هذا الاتون المتقد، وما ان رأت مؤخرة اليونانيين أن الدائرة قد حطت عليهم حتى ولوا الادبار معتصمين برؤوس التلال .

لقد كانت موقعة حربية رائعة ، أكسبت الجيش المصرى فخاراً فوق فخار، فهى أول انتصار حاسم كبير للمصريين على أرض أوربا ، لهذا ما بلغت أخباره الدول الأوربية حتى بدأت ترتاب فى كفاية اليونانيين فى الوقوف أمام هذه القوة المدربة الحديثة ، وراح أنصار اليونان ينشرون الأكاذيب عن إبراهيم ليحثوا عزائم أوربا المسيحية ضد القائد المسلم .

لم يكن إبراهيم ليرضى بالقبوع حول أسوار نافارين ، وهو فوق ذلك يعلم أنه لن يجوّع أهلها بتشديد الحصار حولها لأن المؤن والذخيرة والرجال ترسل إليها بحراً ، وأن جزيرة « اسفاختريا » الممتدة أمام الميناء حصن طبيعى حصين يحميها من كل عدوان عن طريق البحر . .

فإن كان لابد من الاستيلاء على نافارين ، فلا مندوحة من السيطرة على هذه الجزيرة مهما كلف الجيش المصرى الأمر .

كان ذلك فى يوم من أيام شهر مايو ١٨٢٥ ، حين وضع إبراهيم الخطة للاستيلاء على الجزيرة حتى إذا تم له ذلك هاجم المدينة من الماء والأرض . اختار إبراهيم للاستيلاء على الجزيرة قائداً من أخلص قواده هو « سليمان بك الفرنساوى » فأنفذه إلى « مودون » بتعليمات إلى أميرال الأسطول المصرى الذى ما فتئ حتى ذلك الوقت راسيا فى الميناء ، فوقع الاختيار على مئتى وألف جندى أكثرهم من أهل الشواطئ المصرية الذين ألفوا الحياة البحرية، أقلتهم نحو عشرين مركب ما بين حربية وجرارة لحمل المؤن والعتاد .

فلما اقترب الأسطول المصرى من الجزيرة وكان أهلها قد بلغهم عزم إبراهيم على الاستيلاء عليها ، عمدوا الى زيادة تحصينها وتقوية استحكاماتها وادخار المؤن والأقوات فيها ، إذ كان من المتوقع أن يدوم الحصار طويلا . فلما اقترب الأسطول المصرى أطلقت قلاع المدينة وابلا من مدافعها على السفن المقتربة ، فلم يشع ذلك الفزع فى نفوس المصريين إذ كانوا قد أعدوا له العدة ؛ فكان إذا ما اشتعلت النار فى سفينة من السفن حاصروها وأخمدوها فى الحال قبل أن يستفحل أمرها وتنقلها الرياح إلى السفن المجاورة .

ثم أجابت السفن المصرية بقصف من مدافعها وركزت ضرباتها صوب

الاستحكامات الجنوبية ، حتى تحمل القوات المحاصرة على تجميع قواتها فى ذلك المكان من الحصن .

وفى أثناء ذلك ، وتحت ستار من الدخان المنبعث من مدافع الأسطول ومدافع العدو أعطيت اشارة الهجوم ، فما أسرع أن ألقيت إلى الماء مئات من القوارب الصغيرة التى أعدت لهذا الغرض، ووثب إليها رجال تلك الفرقة المتدربة من أبناء الشواطىء المصرية، وراحوا يجذفون صوب الشاطىء ، فلم تنقض نصف ساعة حتى اكتشف المحاصرون فرقة مصرية كاملة العدة والعتاد على ساحل الجزيرة نفسها ، عند ذلك صمتت أفواه المدافع وتبادل الفريقان إطلاق البنادق ، وكانت الفرقة المصرية تتقدم خطوة خطوة وقد تراص رجالها كالحائط المنيع، بينما اختلط الرأى على المحاصرين فمنهم من ولاها ظهره وأخذ يجمع متاعه استعداداً للهرب ، ومنهم من تملكه اليأس فرفع الأيدى مستسلما ، فلم ينقض عصر ذلك النهار حتى استولت الفرقة المصرية على الجزيرة ورفع العلم المصرى على أبراجها .

وفى يوم الأحد ١٧ مايو سنة ١٨٢٥ بدأ هجوم الجيش المصرى المزدوج على ميناء نافارين ذاتها ، فكان الهجوم البرى بقيادة إبراهيم أما البحرى فكان بامرة سليمان الفرنساوى ، وكان كلما تقدم النهار ضاقت الدائرة حول المدينة من جهاتها الأربع ، وأصبح التسرب منها خفية أمراً مستحيلا ؛ فإما التسليم وإما الموت تحت أنقاض المدينة !

وفى صباح يوم الاثنين رأت الكشافة المصرية ثلاثة رجال يقتربون من المعسكر وكانوا يلوحون بأيديهم طلبا للأمان . وكانت هذه الجماعة تتألف من قسيس وشيخ يونانى ومن أحد الأتراك الذى كان سجينا فى المدينة منذ أن استولى الثوار عليها .

جاءهؤلاء يطلبون الأمان ويعرضون التسليم ؛ إذ لم تعد من قوة تمنع الجيش الظافر من الاستيلاء على مدينتهم عنوة ، بل أن الأهوال التى لاقاها أهلها على يد رؤساء الثوار والعساكر المرتزقة مما ينضح له الجبين حياء ، فكان هؤلاء اليونانيون لايتورعون عن دخول البيوت تحت ستار البحث عن الذخائر أو التفتيش عن الجواسيس لينتهكوا حرمات أبناء جلدتهم . واستفحل الأمر بعد أن استولى المصريون على جزيرة « اسفاختريا » فأصبح هم رؤساء الجند جمع ما فى المدينةمن المال والذهب بل ومن الأقوات ، حتى إذا حانت لهم الفرصة تسربوا خلسة تحت جنح الظلام وولوا الادبار ، وتركوا رجالهم من المرتزقة يعيثون فى المدينة خرابا وفسادا ، ولا يتورعون عن الفتك بالقساوسة وقتل النساء فى سبيل إشباع نهمهم فانقلبوا وحوشا لا ضمير لها .

وكان أهل نافارين وقد سمعوا أخبار القائد المصرى والحكايات عن تسامحه وعدله وعطفه يتحينون الفرصة لدعوة إبراهيم لإنقاذهم من هذا البلاء ، وتخليصهم من جور أبناء وطنهم الذين لايعرفون إلا لغة اللصوص وقطاع الطرق .

حتى إذا كان الغد وهو يوم الاثنين ١٨ مايو سنة ١٨٢٥ سلمت «نافارين» العتيدة للجيش المصرى الفاتح ؛ ولما دخلت طلائع الجيش إلى قلب المدينة لم تقفل فى وجهه الأبواب ولم تشح عنه الوجوه ، بل على النقيض من ذلك استقبلته وجوه عمها الفرح ، وأكف هزيلة ارتفعت للضراعة والشكر لتخليصهم من حكومة فاجرة عاتية ـ إذا دعونا العصابات حكومة !

وبدت فى الطرقات وجوه اختفى أصحابها شهوراً طويلة وراء القضبان أو فى الدهاليز الأرضية هربا من الاضطهاد والفتك ، ولما أمسى المساء كانت مدينة نافارين ، وهى التى كانت حزينة بالأمس ، تلبس ثوب العروس ، وقد أمر إبراهيم بتوزيع الأقوات على أهلها دون التفرقة بين أسير وطليق ؛ وراح الأطباء المصريون يعالجون الجرحى ويعنون بالمرضى والمعلولين ، وعم المدينة مابين يوم وليلة أمن شامل وسلام لم تألفه من قبل ، وأصبح أهلها ينظرون إلى هؤلاء الفاتحين نظرة السجين إلى مخلصه الذى منحه الحرية .

ونحرت الذبائح شكراً لله على نعمائه ، وصلى الجنود صلاة الشكر فى رحبة السوق الوسطى ؛ فلما انتهت الصلاة أضيئت مئات المشاعل ، وأقيمت حفلة للفروسية بهرت أنظار أهل المدينة وأطلقت ألسنتهم بالاعجاب كما انطلقت من قبل بالشكر والامتنان .

وفى خلال هذا المهرجان الرائع وفد جماعة من الفلاحين ، قدموا من

ضواحى المدينة وقد أذهلهم مارأوا من عدالة الفاتح المصرى ورغبته فى نشر ألوية الأمن والسلام بين ربوع هذا البلد الذى نكبه أهله ، فتقدمت هذه الجماعة بسلال من الفاكهة وباقات من الزهور البرية إلى إبراهيم ، فكان منظراً أخاذاً بالألباب .

وراح الفلاحون يقبلون يد ابراهيم امتنانا وشكرا ويقلدونه حبال الزهور البرية اعترافاله بالفضل؛ فنظر إليهم القائد المصرى وربت على كتف احدهم وقال:

« بلغوا عنى أهلكم وذويكم ، بأننى أبوكم ، أرعاكم كما يرعى الوالد ولده ، ولا أحمل لكم موجدة ولا حقداً ، بل حبا وسلاما ، فانصرفوا وأبلغوا ذلك إلى الناس جميعا » .

كان سقوط نافارين خاتمة بداية رائعة ، وبداية مرحلة حاسمة ظافرة فى تاريخ الجيش المصرى فى أوربا .

فبينما كان الفلاحون من أهل اليونان يستقبلون إبراهيم أنّا ذهب استقبال المخلص لهم من حياة البـــؤس والفاقة والفوضى ، كان الثوار يستنجدون بدول أوربا لرد الفاتح المصرى على أعقابه ، إذ لا حياة لهم فى ظل النظام والسلام ، وباسم تحرير اليونان جمعت آلاف الجنيهات من الهبات ، وباسمه تدفق المتطوعون من الانجليز والفرنسيين والروس والألمان والنمسويين والطليان ، بل تطوعت أوربا جميعها شعوبا ودولا لرد الجيش المصرى المظفر .

ولكن إبراهيم لم يرعه اجتماع شعوب أوربا ضده ، لأن من ورائه

جيشا أثبت المرة إثر المرة أنه لا يعرف الهزيمة ؛ فسار من نصر إلى نصر ومن فتح إلى فتح ، فدخل « كالاماتا » الحصينة ، واستولى على « أركاديا » العزيزة ، وفتح « تريبولتزا » العتيدة ، واقتحم « مسيولونجى » المنيعة ، ولم يتوقف حتى دخل أثينا نفسها ورفع العلم المصرى خفاقا على « الأركوبول » فكان فتحا مبينا ونصراً عزيزاً .

فتح عكّا

من ذا الذى يجهل إسم « عكا » ذلك الحصن المنيع الذى رجع عنه نابليون العظيم خاسئاً وهو حسير ، نابليون الذى دانت له أوربا دولة بعد دولة ، والذى هدم عروشاً وطوح تيجانا ، والذى دخل برلين وفينا وروما وموسكو دخول الظافر المنتصر !

صمدت عكا وحدها له وهزأت بقوته وعبثت بعظمته ؛ وحول أسوارها الحجرية وبروجها الشماء أريقت دماء أبناء فرنسا رخيصة هينة ، ولم يقبل إله الحرب القربان والضحية . وقبل ذلك أهدرت دماء الترك والعرب حولها ، وكلما ازداد العهد بها كلما ازدادت قوة وصلابة حتى أصبح هذا الحصن كوكر العقاب بعداً وامتناعا .

لقد أصبحت عكا مضربا للأمثال ، وقالوا إن من فتح عكا فقد أتى المستحيل وجعلوا من الخرافة حقيقة واقعة .

هذه «عكا» التى طأطأت الرأس للجندى المصرى وحده ، وجثت له تطلب الرحمة والعفو ! فكان عظيما فى رحمته كما كان عظيما فى شدته وبأسه .

***

فى يوم من أيام الصيف من عام ١٨٣٠ وصلت قافلة من الشام إلى القاهرة ،

وكان من بين ما حملته رسائل من بعض أمراء تلك البلاد إلى والى مصر .

كان محمد على ساعتئذ فى مجلسه بالقلعة ، وكاد ذلك المجلس ينفرط عقده عند ما دخل عليه « بشير أغا » معتوقه الحبشى يحمل هذه الرسائل ، وأغلب الظن أن محمد على كان فى انتظار هذه المكاتيب ، وأكثر من هذا أن محمد على كان يعرف ما تحتوى عليه من رد على رسائله التى سبق أن بعث بها إلى هؤلاء الأمراء !

أشار محمد على إلى كاتبه بفض هذه الرسائل ؛ فكانت الأولى من الشيخ حسين عبد الهادى من زعماء نابلس يرفع إلى محمد على هدية من التين والمشمش الفلسطينى ، وكانت الثانية من الأمير بشير الشهابى يرفع فيها إلى والى مصر شكره وولاءه على ما أسبغه عليه من عطف فى محنته حين عزله السلطان ، ولم تجد وساطة فى حقه إلا شفاعة محمد على .

أما الثالثة فكانت من عبد الله باشا والى صيداء وحاكم عكا . وقبل أن يبدأ الكاتب بتلاوة هذه الرسالة جاء الخادم ليصلح نار النرجيلة فاتكأ محمد على وأرهف سمعه إلى محدثه وقد علت وجهه ابتسامة طفيفة ، وأخذ يقلب النظر بين الواقفين إلى يساره ويومئ إلى أبنه «إبراهيم» ليمعن الفكر فيما يحويه هذا الكتاب بصفة خاصة .

وبعد أن انتهى الكاتب من تلاوة مقدمة الخطاب ، بدأ محمد على يظهر

شيئا من التبرم الصامت لا سيما عند ما وصل الكاتب إلى قوله « إنى وإياك وزيران من وزراء مولانا السلطان محمود خان أعزه الله ونصر عساكره ، فبلاد مصر وبلاد الشام من بلاد الخليفة أدامه الله ، وليس من حقى أن أمنع المهاجرين من رعايا مولانا المعظم الانتقال من مصر إلى سورية ، وليس من حقك أن تمنع المهاجرين من سورية إلى مصر . أما إذا أردت ذلك فما عليك إلا أن تطلب من السلطان حفظه الله ذلك ، فحينئذ ليس لى إلا السمع والطاعة . . »

رفع «محمد على» رأسه وقال : « إن عبد الله باشا لا يعرف تماما معنى ما يمليه على كاتبه ، وهل نسى رسائله السابقة لما جاءنى يشكو ويندب حظه عند ما أرسل إليه السلطان « درويش باشا » لتأديبه ، فلم يجد من يقيل عثاره إلا محمد على ؟ هل نسى عبد الله باشا أنه اقترض منى اثنى عشر كيسا ليدفع ديونه إلى الباب العالى ، وأنه ما زال يماطل ويراوغ فى دفع ما فى ذمته ؟ » .

ثم إنه نظر إلى إبراهيم وقال له « قبل أن يشرق صباح الغد ؛ ليكن ردى على هذا الكتاب فى الطريق إلى عكا ، وليعلم عبد الله باشا إننى قادم فى أثر هذا الخطاب لأعيد هؤلاء الفارين من الجهلاء إلى أوطانهم ، وسوف يزيدون واحداً ، هو عبد الله باشا نفسه . . »

* * *

بعد هذا الاجتماع بأيام ثلاثة كان الزائر إلى ميناء الإسكندرية يشاهد

منظراً من أروع المناظر ، فكان العمل فى الترسانة لا ينقطع ولا يهدأ ، وكان صناعها الذين بلغوا الثمانية آلاف يتناوبون العمل فيها بين جميع ساعات النهار والليل ، وكان مهندس الترسانة «الحاج عمر» ينتقل بين مصانع الترسانة المختلفة مشجعا وحاثا رجاله على العمل والمثابرة .

وعلى امتداد أرصفة ميناء الإسكندرية وقف الأسطول المصرى الجديد ، وقد زهت ألوانه فى ضوء الشمس ، وطويت أشرعته البيضاء الجديدة انتظاراً لساعة الرحيل . وكان البحارة يغدون ويروحون ويشقون الحارات والدروب الموصلة إلى الميناء زرافات يحملون أكياسهم على عواتقهم ويصفرون ويغنون فرحا وابتهاجا .

لقد صدر أمر عزيز مصر بأن يسافر الجيش لتأديب ذلك الباشا ، فكرامة مصر ليست بالشىء الهين الخسيس الذى يجور عليها أحد من الناس ولو كان هذا الرجل وزيراً من وزراء السلطان ؛ لا سيما وأنه قد أنكر فضل أمير مصر عليه ونسى ما أسداه إليه من جميل ، وراح فوق ذلك يشجع أبناء مصر على الفرار من الجهادية التى هى من أقدس واجبات الوطن بما يشيعه فيهم من روح الخور وفساد العزيمة .

وما الذى استفادته مصر من السلطان ؟ وقد فتحت له من قبل صدرها ، فشدت أزره ووقفت بجانبه حين أعوزه النصر ، فحاربت أعداءه ، وهزمت اليونان

فى قعور بيوتهم فخضبت بالدم المصرى أرض المورة ، وعلى شواطئها أحرقت دول أوربا المتجمعة الأسطول المصرى انتقاما !

إن السلطان قد استكثر على أهل مصر أن تمتد حدود دولتهم إلى ما وراء جبال لبنان حيث يجد الجيش المصرى والأسطول المصرى والمصانع المصرية كفايتها من الخشب والحديد والنحاس والفحم وغير ذلك مما هى فى حاجة إليه . وهكذا قابلت مصر من أقصاها إلى أقصاها خبر هذه الحرب بالهتاف والدعاء .

فى ضحى يوم ٤ نوفمبر سنة ١٨٣١ أبحر الأسطول المصرى من ميناء الإسكندرية، وأخذت سفنه الثلاث والثلاثون تنشر أشرعتها البيضاء وتلاحق بعضها بعضا فى عرض البحر ، كأنها سرب رائع من طيور الماء ، واصطف آلاف من أهل الإسكندرية يلوحون لهؤلاء الأبطال ويدعون لهم بالنصر . وفى ذلك اليوم عينه ، كان الجيش البرى قد ترك معسكره فى الخانقاه وسار شرقا إلى بلبيس ومن ثم إلى العريش ؛ وكان هذا الجيش مؤلفا من ثمانية آلاف من الجنود يتقدمهم كثير من القواد أمثال أحمد باشا المنيكلى ، وسليم بك حجازى وغيرهم ، وتزود الجيش بالطعام والماء لقلة الآبار فى صحراء سيناء .

وفى القاعة الكبرى للسفينة « قوله » اجتمع فى صباح يوم من أيام ذلك الأسبوع مجلس تصدره الأمير إبراهيم باشا ، وجلس إلى يمينه أميرال الأسطول المصرى عثمان باشا نور الدين ، وإلى يساره سليمان باشا الفرنساوى

وغيرهم من كبار القواد وأمراء البحر .

وفى عتمة الصباح المبكر بدت شواطئ سورية كأنها خط أبيض يفصل مابين زرقة الماء والسماء ، عند ذاك هرع مئات من المصريين إلى ظهر السفينة « قولة » وقد علا وجوههم البشر ، إذ كان الكثير من الجنود لم يألف ركوب البحر من قبل ، وهم الذين وفدوا من مركز التدريب العسكرى فى أسوان حين دعاهم داعى الوطن .

وفى ظهر ذلك اليوم ألقى الأسطول المصرى مراسيه أمام حيفا ، وإن كانت بعض سفنه الحاملة لفرق الجيش البرى لم تصل بعد إلى حيث هذا المكان .

ولم ينتظر إبراهيم باشا طويلا ، بل نزل إلى البر تتبعه فرقة واحدة من الجنود لم يزد عددها عن ستمائة رجل ونصبوا خيامهم فى ظاهر تلك المدينة . وكان أهل حيفا فى ذلك اليوم قد باغتهم وفود ذلك الأسطول الكبير ولكنهم لم يستسلموا إلى الخوف والفزع ، كما أنهم لم يعمدوا إلى الوقوف موقف عداء ليسوا أهلا له .

وجاءت الأنباء إلى إبراهيم بأن جيشا كبيراً من العرب قد اجتمع فى مكان قريب من معسكره ، بيد أن قواده لم يبيتوا أمرهم على شىء ، فلما رأوا الأسطول المصرى وقد بدأت وحداته تتجمع وتمتد شرقا وغربا على طول الساحل ، أيقنوا أن من حزم الرأى أن يتوجهوا إلى إبراهيم ، مرحبين بقدومه

فيأمنوا بذلك جانبه إلى أن ينجلى الأمر لعيونهم فيحاربون فى صف الفريق الذى يتهيأ له النصر .

وفى ضحى اليوم التالى ، جاء رسول إلى إبراهيم ينبؤه بأن الشيوخ ورؤساء العشائر قادمون للترحيب به والسلام عليه ، فبش إبراهيم للرسول وقربه منه ونفحه قبضة من المال وقال له « بلغ إخواننا فى العروبة والإسلام وجيراننا الأماجد أن إبراهيم بن محمد على يرحب بهم ويسعد لرؤيتهم » . .

وبعد صلاة العصر أقبل وفد الشيوخ بين كوكبة من الفرسان زينت خيولهم بالسروج المقصبة وتدلت من أعناقها أقراص وأهلة من النحاس . فلما اقتربوا من المعسكر المصرى ترجلوا عن أفراسهم وتقدمهم الشيخ عجلان والشيخ فضل السويدى ، فلما أذن لهم بالدخول على إبراهيم وقف من مجلسه وفتح لهم ذراعيه مبتسما ومسلما . ثم قدمت لهم القهوة وراح يتباسط معهم فى الحديث .

ثم أردف الشيخ عجلان قائلا : « إننا أيها الأمير نرحب بكم وها نحن أولئك جئنا للسير فى ركابك وانا نعرض خدمتنا عليك » .

عند ذلك علت وجه إبراهيم ابتسامة طفيفة ، وأحس بثاقب فكره ما يجول فى نفوس هؤلاء الشيوخ وأن إخلاصهم موضع الشك . حتى إذا انتهى الشيخ من كلامه سكت إبراهيم ولم يجب بل راح يقلب البصر بين وجوههم كأنما يريد أن يكشف عن مستور صدورهم . وفعلت نظراته فعلها فى

« ودارت معركة دموية بالبنادق وأطراف الأسنة كان النصر فيها حليف الفرقة المصرية »

« حماة الدانوب »

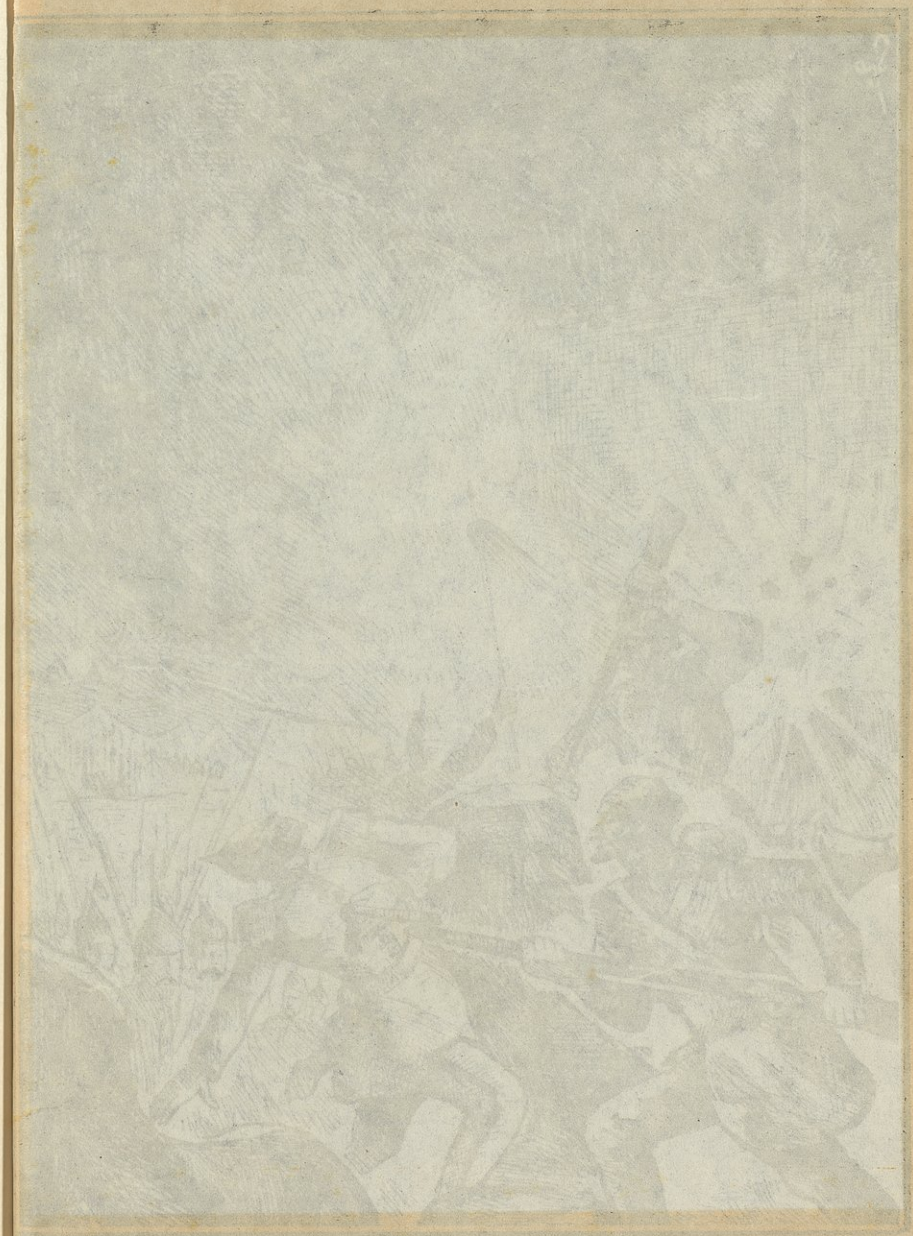

نفوسهم فوجموا فى أماكنهم ونكسوا عيونهم إلى الأرض .

عند ذلك ابتسم إبراهيم ابتسامة الظافر ووقف من مقعده ، فوقف لموقفه الشيوخ ، ثم تقدم لمحدثه وربت على كتفه وتوجه الى ضيوفه بالكلام قائلا :

« إنى أرحب بكم وانى فخور بمآزرتكم ، ولكنى كرجل من رجال الحرب أعلن قبولى هذا العرض بشرط واحد ، هو أننى سأحتفظ بأولادكم وديعة عندى حتى يثبت لى إخلاصكم . . »

ثم مد يده مصافحا اياهم بين دهشة الزائرين وعجب قواده ، ولم يترك لأحد فرصة للرد عليه ، فخرجوا وقد أحسوا بأنهم لا ينازلون قائدا حربيا فحسب ، بل سياسيا مجربا لا يخطو خطوة حتى يعرف مكان قدميه . .

وعندما رجع الوفد إلى المدينة وقصوا ما رأوه فى المعسكر المصرى ، وما عليه إبراهيم باشا من سماحة مع شدة وصلابة ، انتشرت الأخبار بأن الأمير المصرى لا يريد شراً بأهل سورية ، وانه ما جاء إلا لتأديب حاكم عكا عبد الله باشا ؛ ولم يكن بغض السوريين لهذا الباشا بالأمر الذى غاب عن إبراهيم ، اذ كان غشوما لا يرعى حرمة ولا يحفظ عهداً لأحد ، لذلك كانت القلوب تتفتح يوما بعد يوم للقائد المصرى .

بعد أيام وردت الأنباء من يافا بأن الجيش المصرى البرى وصل إليها ، وما كادت طلائعه تبدو من الجنوب حتى حل الذعر بالحامية التركية ، وسرعان

ما قر قرار حاكمها على إخلاء المدينة ، فلما أصبح النهار كانت المدينة قد فتحت أبوابها مرحبة بالجيش الظافر ، فدخلها القائد المصرى إبراهيم باشا يكن وشق شارع السوق حتى وصل إلى الجامع الكبير .

ولم يستقر المقام طويلا بالجيش فى يافا ، فبعد أن استراح الجنود وتزودوا بالماء وحملوا بعض ما أهدى إليهم من البرتقال والتين والتفاح والبرقوق ، استقبلوا الطريق إلى حيفا حيث كان الأمير إبراهيم فى انتظارهم .

وكان كل يوم يمر على الجيش المصرى فى حيفا يزداد فيه تآلف القلوب حوله ؛ وكان إبراهيم يستقبل فى كل يوم شيوخا من شيوخ القبائل العربية وكثيرا من وجهاء سورية ولبنان وأصحاب الأمر فيها من مسلمين ونصارى يعرضون عليه خدماتهم ويقدمون لجيشه ما يتطلبه من زاد وعتاد ، وقد رأوا فى الأمير المصرى مثالا كاملا للتسامح الدينى ورغبة صادقة فى نشر ألوية العدل بين أهل البلاد .

وحدث ذات يوم أن كان إبراهيم يتنزه فى صحبة اثنين من حاشيته على جبل الكرمل الذى يشرف على حيفا ، فتقدم إليه بعض الرهبان للتسليم عليه فقابلهم بالبشر والترحاب ، فلما أنسوا إليه شكوا له عسف عبد الله باشا الذى اغتصب ما كان عندهم من أدوات للبناء جمعوها لتشييد دير لهم على هذا الجبل ليبنى بها قصراً لنفسه ، ولم يرحم تشردهم ؛ فما كان من إبراهيم إلا أن أصدر أمره برد كل ما اغتصب منهم ، بل وعرض عليهم قصر الباشا نفسه

إذا ما كانوا فى حاجة إليه !

وفى صباح اليوم الثالث تحرك الجيش المصرى صوب عكا سائراً فى طريق ضيق ما بين الجبل والبحر لا يكاد يتسع لصف واحد من الجنود ، وكانت عربات المدافع تخوض فى مياه البحر الضحضاحة ؛ وفى تلك الساعة عينها نشر الأسطول المصرى أشرعته وسار جنبا إلى جنب مع الجيوش البرية حتى ألقى مراسيه على مدى المرمى من أسوار عكا .

كانت أخبار هذه الجيوش المنتصرة قد بلغت مسامع عبد الله باشا . ولم يكن حاكم عكا بالرجل الجبان الرعديد الذى يفرق قلبه لمثل هذا الهجوم ، ولم تكن عكا بالمدينة التى يسهل اقتحامها ، فأسوارها التى صدت نابليون من قبل أصبحت أشد منعة وصلابة ، وارتفعت عليها أبراج جديدة ركبت عليها المدافع وجعلت من يفكر فى غزوها يحازف بحياة رجاله . لقد أصبحت عكا قلعة ممتنعة لاينفذ إليها مهاجم إلا إذا دكت هذه الأسوار الضخمة الصماء التى انحدرت إلى البحر ، فأصبح الوصول إليها من هذا الجانب هو الموت المحقق .

جلس عبد الله باشا فى بهو قصره يحف به رجاله وهو لايفتأ يصدر أوامره وتعليماته ؛ وقد ارتجت أبواب المدينة جميعها إلا بوابة «النبى صالح» حيث كانت القوافل تدخل إلى المدينة دون انقطاع محملة بالقمح والشعير والأرز والزيوت والفاكهة المجففة والعسل حتى تكدست منها فى مخازن المدينة مقادير

وفيرة تكفى أهلها وحاميتها سنة كاملة ؛ وكانت مخازن الذخيرة ملأى بصناديق البارود والمفرقعات والرصاص ، كما حبست فى المدينة أسراب كبيرة من الأغنام .

كان عبد الله باشا يعرف أن إبراهيم سوف يحاصر مدينته بجيوشه البرية وأسطوله العظيم ويمنع عنها الأرزاق والأقوات ، ويكفى أن يثبت فى مكانه حولها بضعة شهور ليضطرها إلى التسليم هربا من غائلة الجوع . نعم كان عبد الله باشا صادقا فى حدسه ، لأن محمد على رأى ألا يضحى بأرواح المصريين رخيصة حول أسوار عكا ، لذلك لم يحمل ابنه العظيم على غزو المدينة إلا فى حملات متقطعة ، حتى إذا أضعف الروح المعنوية عند أهلها هاجمها مستميتا ، وهكذا كان .

فلما وصل إبراهيم بجيوشه حول أسوار عكا أقام المتاريس ووزع ألوية الجيش حول الخندق الذى حفره عبد الله باشا حول الأسوار ، كما تجمعت وحدات الأسطول على امتداد الساحل .

وفى مساء اليوم الثامن من شهر ديسمبر ، عقد إبراهيم مجلسا عسكريا فى خيمته حضره عثمان باشا نور الدين أميرال الاسطول وأمراء البحر الآخرون ؛ وفى هذا الاجتماع شرح إبراهيم لقواده سياسته فى مهاجمة المدينة وقرر أن يبدأ فى الغد بهجوم عنيف على المدينة من البر والبحر يستمر يومين كاملين حتى يظهر لحامية المدينة ما عليه الجيش المصرى من قوة عظيمة .

وفى هذه الأثناء رجع الرسول الذى بعثه إبراهيم إلى عبد الله باشا طالبا

منه أن يخلى المدينة من الشيوخ والنساء والأطفال الذين تستهدف أرواحهم للهلاك المحقق إبان هذا الصراع الدموى ، ولكن عبد الله باشا رفض بكبرياء وحمق هذه الرغبة الإنسانية التى دلت على ما جبلت عليه نفس إبراهيم من حب وعطف صادق .

وعند ما انفض المجلس فى ساعة متأخرة ، وكانت الليلة من الليالى الباردة القارصة ، خرج المؤتمرون تحت طوفان من المطر ، وكانت أمواج البحر متلاطمة هائجة ، وكأنما كانت الطبيعة تشارك الإنسان فى تآمره ثورته .

وما تنفس صبح الغد حتى دوت من جانب البحر أول طلقة فى هذا الحصار الذى رددت أخباره أرجاء أوربا وأنحاء الشرق بأسره ، وأرسل قناصل الدول أخبار هذا الحصار النادر المثال إلى باريس وموسكو ولندن ذاكرين أن عكا التى تراجع عنها نابليون قبل ذلك بثلاثين عاما لم تثن همة محمد على عن حصارها ، وعن دك حصونها ، وفتحها قوة واقتدارا .

وما أن انطلقت القنبلة الأولى من السفينة « الجعفرية » التى كان يقودها « احمد قبودان » حتى فتحت فوهات نحو خمسمائة مدفع من مدافع الأسطول المصرى ، ثم بدأ الجيش البرى بإطلاق مدافعه دون هوادة ، وردت المدينة هذا الهجوم العنيف بمثله فكان يوما رهيبا تجاوبت أصداءه وهاد فلسطين وجبال لبنان ، ولم يصمت هذا الهدير القاصف إلا بعد يومين كاملين زلزلت فى أثنائه المدينة وسرى الفزع والرعب فى نفوس أهلها تحت السقوف والجدران المتساقطة .

بعد هذا الهجوم العنيف عاد السلام ثانية حول عكا ، لأن إبراهيم أراد ألا يرهق جنوده بعد رحلته الطويلة بقتال متواصل ، وهو فى غير ضرورة إلى التضحية بأرواح رجاله إذ ليست عكا الهدف الأخير الذى من أجله جاء بجيوشه إلى سورية ؛ بل ان آمال محمد على الكبيرة كانت تضيق بحدود مصر التقليدية ، لهذا كان يرى أن تترامى وتمتد هذه الحدود حتى آخر بلد يتكلم اللغة العربية ، فهذه البلاد يجب أن تكون دولة واحدة قلبها الخفاق هو مصر .

وبينما كانت عكا يسورها الجيش المصرى ، إذا بوحدات هذا الجيش تتقدم شرقا وشمالا ، فتدخل بلداً إثر بلد ، وتهزم الجيوش التركية فى موقعة إثر موقعة ، وجاءت الوفود تترى الى إبراهيم لتقدم إليه فروض الطاعة ، ولم يبق فى فلسطين ولبنان وسورية بلد إلا ودخل فى إمرة إبراهيم .

ومع ما عرف عن إبراهيم من لين العريكة والرحمة والعدل ، إلا أنه كان صارما كالسيف فى موضع الشدة ، وإن أهل لبنان ليذكرون ماحدث للأمير « بشير الشهابى » الذى حباه محمد على بعطفه عند ما أبدى ترددا فى الانضمام إلى جيوش إبراهيم ؛ إذ لم يكد يبلغ ذلك مسامع محمد على حتى كتب إليه خطابا عنيفا ذكره فيه بفضله عليه وأنذره إذا ما تأخر عن الانضمام إلى ابراهيم « ليخربن قصره ومساكنه ، وليزرعن فى مكانها أشجار الزيتون » ! .

مضى أسبوعان منذ أن شمل السكون أسوار عكا ، ولما كان عبد الله باشا

الجزار مصرا على عناده ، أمر إبراهيم بمعاودة الهجوم ؛ فدوى هزيم مئات القذائف ، وسددت السواريخ الملتهبة على الأبراج وعلى قصر عبد الله باشا نفسه فاندلعت ألسنة النيران . فلم يجد الجزار بدا من إخلاء قصره والفرار إلى برج الخزنة وهو من أبراج السور الحصين ، وكان فعل نيران المدافع المصرية هائلا فتتت الصخور القاسية التى شيدت منها أسوار هذه القلعة العتيدة ، وقبيل العشية جاءت الرسل إلى إبراهيم تنبؤه بأن القذائف قد حفرت ثغرة فى صميم السور الشرقى عند البوابة الكبرى وأن رجال الفرقة الثالثة على تمام الأهبة لولوج المدينة من هذه الثغرة ، ولكن إبراهيم لم يرض أن يلقى برجاله فى هذه المصيدة فأرجأ هذا الهجوم إلى أن تعددت هذه الثغرات لكى تتسع لهجوم واحد حاسم .

وفى مساء تلك الليلة ألقى الحراس القبض على رجل يقترب من المعسكر المصرى ، عرف بعد ذلك بأنه « صبيح أغا الألبانى » وقد جاء مستعطفا إبراهيم للعفو عن حامية عكا الألبانية وعددها خمسمائة جندى ؛ فقبل القائد المصرى رجاءه وأعطاه وعداً بالأمان ، عند ذلك كر صبيح راجعا من حيث أتى فى جنح الظلام وتحت دوى القنابل والبنادق ؛ وقبل أن تتفتح أكمام فجر الغد عاد الألبانى على رأس فرقته التى انضمت إلى الجيش المصرى ، فكان ذلك انتصارا أدبيا لإبراهيم .

مضت الأسابيع يتلو بعضها بعضاً ، وامتدت فتوح الجيش المصرى حتى بلاد الأنضول ، ولكن عكا وحدها بقيت رابضة فى مكانها وقد أذابت النيران المصبوبة عليها الحديد والصخور ؛ ولكن عبد الله باشا الجزار كان أشد قلبا من كل ذلك ، وكان إبراهيم لا يريد استباق النتائج المحتومة ، فهو قد وطد العزم على أن يدخل الجيش المصرى عكا ، وأن يحقق وعيد أبيه بأن يرجع أبناء مصر إلى مصر بزيادة رجل واحد هو عبد الله باشا نفسه !

ثم عادت الجيوش الظافرة من حمص وحماه ودمشق وبعلبك والزراعة إلى معسكرها حول عكا ، حين بيت إبراهيم العزم على اقتحام هذا الحصن ، فقد مضت ستة شهور كاملة وعكا كالجزيرة المقطوعة فى عرض البحر لا يصل إليها نازح ، وأصبحت قصورها وأسواقها أكواما من التراب ، وخمدت جذوة الحماس فى نفس جنودها ، وقد رأوا كيف أخذت قوتهم تضمحل وتتلاشى ، فلم يبق من تلك الآلاف التى بدأت القتال منذ نصف عام مضى إلا بضع مئين ، وأيقنوا أن النجدة التركية المأمولة ليست إلا خرافة ابتدعها عبد الله باشا ليشيع الطمأنينة فى نفوسهم ، إذ أن الجيوش التركية هزمت فى كل مكان !

كان السابع والعشرون من شهر مايو سنة ١٨٣٢ الموعد المضروب لهذه الأعجوبة « فتح عكا » ! وما أن أشرقت شمس ذلك الصباح حتى بدأت

معركة دامية قاسية كانت الأرواح تباع فيها طعاما للبارود والحمم الملتهبة ، ولم يرتفع الضحى حتى كانت فرقة سليم بك حجازى قد نفذت إلى السور بعد أن أحدثت مدافعها ثغرة واسعة عند برج النبى صالح ؛ وزاد هذا النصر من جرأة الجنود وراحت فرق الجيش تتبارى فى الهجوم والتضحية فلم تكد ترتفع الشمس إلى قلب السماء ـ وكان اليوم من أيام الربيع الدافئة ـ حتى كانت الفرقة التى يقودها «أحمد باشا المنكلى» قد نفذت بالفعل من برج الزاوية ، ولم تمض ساعة أو بعض ساعة حتى أصيب هذا السور بثغرة ثالثة عند « قبو برج » .

عند ذلك دوى الهتاف قويا كالرعد القاصف واختلط بهدير المدافع والبنادق التى ما كانت تصمت ، وعلا الصياح من وراء الأسوار ، لقد دنت الخاتمة وأصبحت عكا بحصونها الممتنعة سبيلا مفتوحا فى وجه الجيوش المصرية .

وكانت هذه الجيوش لا يهدأ لها قرار ، ولم تغرها عن القيام بواجبها راحة أو طعام ؛ اذ أن حقيقة واحدة كانت ماثلة فى ذهن كل جندى ؛ هى أن هذا الطريق أصبح مفتوحا معبداً لدخول عكا ، وأن عزة مصر وكرامة هذا الوطن مرهونة باقتحام هذه الأسوار ، وأن العالم بأسره من شرقيه وغربيه يرهف الآذان فى هذه الساعة ليرى ما يصنع فتى النيل حول الحصون التى ردت أبناء فرنسا خائبة من قبل !

وظهر إبراهيم يتبعه أركان حربه وتقدم إلى خطوط النار الأولى وصاح صائح فى تلك الساعة : إلى عكا ! إلى عكا يا أبناء مصر ...

وهكذا بدأ الفصل الختامى لهذه القصة ، قصة يرتفع لها رأس الجندى المصرى زهواً فى موضع الفخار والبطولة ، فمن هذه الثغرات المحفورة فى صميم الصخر نفذت الجنود المصرية غير آبهة بالموت الذى كان تصبه الحامية المستميتة وراء هذه الأسوار ، وسرعان ما انتقلت ساحات القتال من السهول الممتدة حول عكا إلى أسواق المدينة نفسها ، فكان صراعا بين الموت والحياة وقف فيه الجنود وجها لوجه لا تحجبهم أسوار ولا خنادق ، وصمتت المدافع والبنادق ولمعت الرماح والسيوف والخناجر .

وكان الصراع هائلا عند « قبو برج » فقد حارب المحاصرون حرب المستميت وكان الطريق الذى شقته القنابل ضيقا معرضا لنيران البنادق ، حتى أن ضابطا من الفرقة الألبانية تراجع مذعوراً وكاد يفضى ذلك إلى تقهقر الفرقة كلها ، فما كان من إبراهيم إلا أن اندفع إلى مقدمة الفرقة ملوحا بسيفه فى الهواء ـ بعد أن أطاح رأس ذلك الضابط بسيفه ـ فقاد بنفسه هذه الكتيبة ، فأثارت هذه البسالة النادرة نفوس الرجال ، فتقدموا كالسد المرصوص ونفذوا إلى قلب المدينة .

كانت عكا فى ذلك اليوم وكأنها مدينة الخراب والموت ، لقد فعل فيها

الحصار فعله ، وعملت المدافع والقذائف والسواريخ المحرقة أسوأ ما تفعله آلات الحرب ، فتركت المدينة العظيمة خرائب وأكواما من التراب والأخشاب ، كما عمل الجوع والفزع فى نفوس أهلها ، فهزلت الأجسام وذبلت الوجوه وغارت العيون .

ولم تغب شمس ذلك اليوم الرهيب حتى جاء أعيان المدينة البائسة يسلمون مفاتيحها ويطلبون العفو والأمان من إبراهيم . فقابلهم هاشاً فى وجوههم مرحبا بهم مصبرا لهم على ما بلتهم به الحرب غافراً لهم عقوقهم ؛ فعادوا إلى أهلهم ينشرون أخبار هذه البشرى .

وبعد صلاة العشاء جاء إلى المعسكر المصرى مفتى عكا ومعه إمام عبد الله باشا يطلبان المثول فى حضرة الأمير المصرى . وهناك فى خيمة إبراهيم عرضا عليه التماس عبد الله باشا وهو لا يطلب إلا أن يعامل كما يعامل رجال الحرب ، فقد قام بواجبه كجندى ودافع عن حماه كما يدافع عنه رجل شجاع .

وفى اليوم التالى أصدر إبراهيم أمراً بتعيين أحد رجاله المدعو «منيب افندى» حاكما لعكا ، وهكذا طويت صفحة من تاريخ هذه المدينة .

وبعد هذه الحوادث بشهر أو نحوه ، وفى جزيرة الروضة أمام القاهرة ، كان رجل مديد القامة يسير فى الطريق ما بين المقياس والقصر القديم

وقد حمل بين أصابعه علبة سعوط ذهبية يعبث بها .

وسار خلفه على مدى خطوات عديدة منه سائس من خاصة محمد على يقود فرسا .

كان هذا الرجل عبد الله باشا الجزار والى عكا السابق ...

حماة الدّانوب

لم يكن الصبح قد تفتح ، عند ما جلس أمير الألاى « حسين بك » فى خيمته يقلب النظر إلى جملة من الرسائل والرسوم التى وضعها أمامه . وإلى جانبها مصحف صغير مذهب ما زال مفتوحا منذ انتهى من تلاوة بعض آى الذكر الحكيم .

وقف « حسين بك » يستنشق نسيم الصباح ويستقبل أشعة شمس ذلك اليوم ، وقد أخذت أيام الدفء تقترب ؛ إذ لم يبق على شهر رمضان شهر الصوم والجهاد إلا خمسة أيام .

وكان المنظر من تلك الربوة العالية التى نصبت عليها خيمة أمير الآلاى بديعا فاتنا ، وكانت تجرى تحتها مياه نهر تخللته عشرات الجزر الصغيرة الخضراء ، وإلى شمالها بدت فى نور الصباح مدينة كانت نائمة زينت رؤوسها القباب والمآذن البيضاء التى زادت بهاء فى ضوء هذا الصباح المبكر . تذكر القائد المصرى مثل وقفته هذه على جبل المقطم وراء أسوار القلعة ، وهو يطل على القاهرة التى امتدت تحته ، وقد توجتها مئات المآذن والقباب وجرى النيل إلى جوارها وادعا ساكنا . .

ولكن « طابية العرب » التى يحرسها اليوم ليست بقلعة المقطم ،

وليست مدينة « سلسترا » التى يدافع عنها بمدينة القاهرة ، وليس نهر الدانوب هـذا بالنيل السعيد .

ثم تذكر حسين بك ذلك الاستقبال العظيم الذى أقيم لفرقته فى ميدان الاسكندرية عند ما استعرضها الجناب العالى عباس باشا الأول ، وتذكر ذلك الحماس الذى ودع أهل وطنه به جيوشهم المصرية عند ما أبحرت إلى اسطنبول .

ولم يكن استقبالهم فى اسطنبول أقل حفاوة ، إذ خرج أهلها الى شاطئ البسفور يلوحون ويهللون ويهتفون للأسطول المصرى الذى أجاب نداءهم وجاء لنصرتهم . ولم ينس حسين بك ذلك العطف الذى غمره به «السلطان عبد المجيد » عند ما زار معسكر الجنود المصرية على البسفور ، ولم ينس علبة التبغ المرصعة التى أهداها إليه .

أخذت هذه الذكريات تطارد بعضها بعضا فى مخيلة الأمير الاى حسين بك حتى قطعها نداء « البروجى » يدعو الفرقة لتحية العلم المصرى الذى ارتفع عاليا على أسوار « طابية العرب » .

وما أسرع أن برزت مئات الجنود من خيامها ومن مخابئها التى حفرتها الطبيعة فى صخور التل الذى بنيت عليـه القلعة ، وما أسرع أن تجمعت جموعهم واصطفت صفوفا معتدلة كالسيوف التى تدلت إلى جنوبهم ، كما تدلت بنادقهم من أكتافهم ، وتزينت رؤوسهم بالطرابيش الحمراء البهيجة ذات الخصل

السوداء الكثيفة التى عبثت الريح بخيوطها .

وما أن انتهى هذا العرض حتى رجعت الجنود إلى ما كانت عليه من أعمال التحصين ونقل الذخائر من مكانها ، ومن تثبيت المدافع وإعداد الطعام . وجلس فريق منهم على السور الجنوبى يغنى ويمزح ويمرح وينشد الأناشيد بأصوات ملؤها الرجولة والعزة والثقة بالنفس ، وهم يراقبون حركات الجنود الروسية على ضفة النهر الأخرى وهى تعمل جاهدة فى تشييد قنطرة على الدانوب حتى يتيسر لها مهاجمة طابية العرب ، وهى التى احتلتها الجيوش المصرية أخيرا للدفاع عن مدينة سلسترا .

كانوا يشعرون بأن الموقعة الفاصلة قد اقتربت ، وأن هذا اليوم لم يعد بعيداً ؛ فكان ذلك داعيا لإذكاء حماسهم وشحذ عزائمهم ، فمنذ الشهور الستة الأخيرة اصطدمت قواتهم بالجيوش الروسية أكثر من مرة ، فقاتلوهم عند «أولتزا» وهزموهم شر هزيمة ، أما عند «سلسترا» هذه فقد ألجأوهم إلى الفرار ورجعوا من حيث أتوا دون أن يصاب منهم مصرى واحد ! حتى بهرت أخبار انتصاراتهم أهل أوربا ، وتحدثت عن بسالتهم الصحف ، وتناقلتها الألسن . وأخذت الجيوش الروسية التى تفوقها عدداً تستعد كل يوم لأخذ الثأر ، وكانت تصلها النجدات والذخائر التى لا حصر لها استعداداً لنزال جديد حاسم مع هذا الجيش المصرى المغامر .

لم يكن فى طابية العرب إلا أربع أورط مصرية يقودها «حسين بك» أمير الاى الفرقة العاشرة من المشاة ، أما الجيش الروسى فكان رجاله أضعاف هذا العدد وقد أثارت الهزيمة نفوسهم بعد أن غدت جيوش القيصر العظيمة ، التى كانت مصدر الفزع لأهل أوربا موضع السخرية والدعابة ، وقد راوغتها هذه الفرق المصرية القليلة العدد واضطرتها إلى التقهقر تارة والانسحاب تارة أخرى .

لم يعد هنالك سبيل لصلح أو سلام ، لأن دولا أخرى جاءت لنصرة تركيا ، جاءت فرنسا كما جاءت انجلترا بأساطيلها وانضمتا إلى الأسطولين التركى والمصرى ؛ وقابلت الحامية المصرية فى طابية العرب هذه الأخبار بالحماس الشديد ، كما قابلتها الحاميات التركية المعسكرة فى الحصنين المجاورين ـ طابية إيلانى وطابية أردو ـ وكانت جميعها فى تمام الأهبة لحماية سلسلترا .

ومن العجيب أن ماتوقعته الحامية المصرية حدث بالفعل .

ففى مساء ذلك اليوم نفسه ، ما كاد حسين بك قائد الفرقة المصرية يرجع إلى خيمته بعد انفضاض المجلس العسكرى تحت رياسة القائد العام للجيوش التركية والمصرية موسى باشا ، حتى لمح فى الأفق الغربى وميضا كوميض البرق فى أيام الشتاء سرعان ما اختفى وتبعته قرقعة كقرقعة الرعد المتهدر ..

لقد بدأ الهجوم الروسى .

وبدأت الموقعة الحاسمة ..

ولم تكن هى إلا دقائق معدودات حتى كانت الحامية المصرية فى أماكنها خلف أسوار الطابية ..

لقد كانت الليلة مظامة عابسة إلا من وميض النجوم الباهتة التى كانت تختفى الفينة بعد الفينة خلف ستور السحاب التى تسوقه الريح . وكانت جموع الحامية المصرية تسرى فى ضوئها الخافت كالأشباح تدير فوهات المدافع وتوزع الدانات والمفرقعات والذخائر هنا وهناك ، ووقف الجنود وراء الطاقات مصوبين بنادقهم ينتظرون أوامر قوادهم .

ووقف حسين بك على باب خيمته يحمل منظاره ، ويقلب النظر صوب الغرب ، ووقف من حوله بعض أركان حربه ينتظرون تعليماته ، وانحنى البعض على منضدة وسطى يلقون بنظرات سريعة على المصور المنشور فوقها ويتبعون بأصابعهم الخطوط المرسومة عليه .

وأسرع أركان الحرب ينقلون أوامر قائد الحامية ، ففتحت المدافع المصرية أفواهها للمرة الأولى منذ احتلال هذه القلعة ، ودوى هزيم القنابل حول طابية العرب كما دوى حول طابيتى «إيلانى» و«أردو» ، إذ كان هجوم الروس شاملا ؛ ولكن طابية العرب كانت هدفهم المنشود ، فجردوا عليها اثنتى عشرة بطارية كاملة ، وسلطوا على أسوارها نيران اثنين وسبعين مدفعا لا تفتر ولا تصمت ؛ وفى خلال هذا الدوى تسربت فرقة إلى مرتفعات الحصن حيث الأورطة الثالثة التى كان يقودها

البكباشى سليم ساطع افندى ، فطوقتهم بطلقات البنادق السريعة وأجلتهم عنها وهكذا فشلت هذه الغارة .

ولكن الروس لم يثنهم هذا الفشل الأول ، إذ أنهم كرروا الهجوم فى ضحى الغد ولكنهم منوا بفشل أكبر .

مضت ثلاثة أيام منذ ردت الجيوش الروسية عن « طابية العرب » ، وعاد السلام يرفرف على هذه المرتفعات ، ولكنه سكون كهدأة الطبيعة قبل ثورانها .

وفى تلك الليلة بدا من الغرب هلال رقيق كهلال العلم المصرى الذى يرفرف على أسوار هذه القلعة ، فارتفعت الأصوات بالهتاف والدعاء ، وأقبل الجنود يهنىء بعضهم بعضا ، وراحوا يبشرون أنفسهم بنصر قريب ..

لقد بدأ رمضان شهر الصيام ، شهر الجهاد فى سبيل الله ؛ فزادهم ذلك إيمانا ويقيناً ، واجتمع المجلس العسكرى برآسة موسى باشا ، وجلس حول مائدته قواد الفرقة المصرية ، وأجتمع الرأى على أن يهاجم بعض رجال الحامية بطاريات العدو نفسها قبل أن تنظم أمرها لهجوم جديد ، إذ مضت سبعة أيام منذ ارتد الروس على أعقابهم ؛ بيد أن موسى باشا لم يستقر على رأى ، وفضل الانتظار إلى الغد .

وما انتصفت تلك الليلة ، وكانت دامسة الظلام مكفهرة عابسة ، حتى بوغتت الحامية المصرية بهجوم جديد من كل مكان ، استخدم فيه الأعداء كل ما لديهم

من رجال وعتاد ، فكأنهم أرادوا بذلك الفناء تحت ظلال طابيـــة العرب أو دكها إلى الحضيض والقضاء على من فيها من رجال النجدة المصرية . وكأن قائدهم المشهور المرشـال « باسكيفتش » أراد أن يؤكد للقائد التركى موسى باشا ، ان الإنذار الذى أرسله إليه كان جاداً فيه لا هازلا وهو الذى يقول فيه : « إننى أيها القائد قد بيت العزم على الاستيلاء على هـذا الحصن مهما لاقيت فى سبيل ذلك من تضحية فى الأنفس والأموال » فهل حكم القضاء على هذه الفرقة المصرية الباسلة بالموت ؟ وهل قدر لهؤلاء المصريين من أبناء النيل أن تبنى قبورهم على ضفاف الدانوب ؟ نعم ان الحرب لا ترحم ، ولـكنها إذا كانت فى سبيل مبادئ سامية عالية لا فى سبيل الطمع والجشع فإن الجندى الباسل يموت هانئاً قرير العين إذا أدى رسالته وحفظ شرف رايته .

كان ذلك اليوم من أيام الأحد ، وكان المعسكر الروسى فى حركة دائمة إذ سرى الخبر بين الجنود بأن الموقعة الفاصلة قد تقرر أمرها فى ذلك اليوم ، فكأنما قد أبرم مصيرهم من الحياة والموت .

وجاء القسس بصلبانهـم وشموعهم ومباخرهم يرتلون الدعاء وينشدون الأناشيد الحماسية .

وقبل أن تنحـدر الشمس للمغيب دوى « البروجى » فاجتمعت جموع الفرق التى تـكون منها هذا الجيش المهاجم ، الذى قيل إن عـدد جنوده بلغ

مائة ألف من المقاتلين ، وتقدم نحو ثلث رجاله لبدء الهجوم على طابية العرب وعلى الطابيتين المجاورتين .

وما اصطفت جموع هذه الفرق حتى تقدم المارشال « باسكيفتش » وتبعه رهط من قواده وأركان حربه وفيهم كثير من الأمراء ورجال الحرب المعروفين ، الذين حاربوا قبل ذلك وانتصروا فى كثير من المواقع بين أنحاء أوربا المختلفة ؛ وما ان ساد السكون إلا من صهيل مئات من الأفراس الروسية الضخمة حتى ارتفع صوت المارشال مخاطباً هذه الآلاف من الجنود حاثا إياهم على البذل والتضحية محرضا إياهم على القتال حتى النصر أو الموت ، مثيراً فيهم كل حماس ومذكيا فى نفوسهم نار الوطنية والبطولة ؛ حتى إذا انتهى من هذه النغمة راح يتوعدهم إذا ارتدوا خائبين وينذرهم بصنوف العقاب والحرمان حتى من الخبز والماء إذا باءوا بخذلان .

وعند ما أرخى الليل ستاره تقدمت فرقتان إلى طابية العرب فى سكون مريب ، وأخذت تتسلق المرتفعات التى تقود إلى أسوار هذا الحصن ، وما كاد ينتصف الليل حتى كانت الفصائل الأولى تتسلق السور وتنفذ إلى صميم القلعة قبل أن يلمحهم أحد . . . فكأن القضاء قد حم ، وأن الحكم بالموت قد أصبح من نصيب هؤلاء المجاهدين !

ولكن البطولة لا تقهر ، والجندى الذى كتب على نفسه وثيقة الجهاد

والشرف لا يغلب ولا يحنى رأسه للذل والعار ؛ ففى الساعة التى دوت فيها طلقات مدافع الروس الثقيلة ، تنبه الملازم « عبد المقصود افندى » من سلاح المدفعية إلى هذا الخطر المفاجئ فأصدر أمره إلى رجاله فردوا على نيران العدو بنيران حامية ، واندفع إلى الثغرة التى فتحتها القوة الروسية لصد تقدمهم إلى ما وراء الأسوار . واستخدمت الجنود المصرية الكرات المتفجرة التى عملت فعلها فى صفوف المهاجمين ، ومزق وابل من الرصاص شملهم ، بيد أن ذلك الملازم الباسل لقى حتفه فى هذا الصراع الدموى وهو لا يفتأ يحرض رجاله على مواصلة القتال ، كما قتل الضابط الروسى الذى قاد هذه الفرقة المغامرة .

وما أن شهدت الجنود مصرع ضابطهم حتى ثارت ثائرتهم واندفعوا إلى صفوف الأعداء الذين دب التخاذل بينهم وأحسوا بأن الموقف قد انقلب عليهم ، فاستحال هجومهم دفاعا عن أنفسهم ، وأخذوا فى التراجع تتبعهم الحامية المصرية بأطراف البنادق وأسنة الحراب فحصروهم فى الخندق المحفور حول الحصن ، وكان القسس من ورائهم يحرضونهم على الثبات والدفاع ؛ ولكن تحريضهم ذهب هباء إذ كانت النيران التى صبتها على رؤوسهم الحامية المصرية من فوهات المدافع وطلقات البنادق وفعل الكرات المتفجرة قد أحالت ذلك المكان إلى قطعة من الجحيم ذاب فيه الرصاص وتوهج الحديد .

وما إن ارتد الروس إلى أماكنهم وصمت هتاف الجنود المصرية المنتصرة

حتى خف رجال القسم الطبي إلى العناية بمن قتل أو أصيب فى هذه المعركة وهم نفر قليل ، ثم أسرع بعض جنود فرقة المدفعية الرابعة يبحثون فى ضوء المشاعل عن جثمان الضابط الشهيد « عبد المقصود افندى » الذى وقع صريعا عند بدء القتال. ولكن لم تمض بضع ساعة حتى دوى دق الطبول فى المعسكر الروسى ، فإذا بهم قد عاودوا الهجوم مرة أخرى ، وعادت الحامية المصرية إلى أماكنها مستبسلة فى القتال بعد أن تكاملت مفارق رجالها بتيجان النصر ، ولم تكن الجنود الروسية أقل استبسالا بل إن الفشل أثار فى رجالها روح التضحية فطفقت تتسلق المرتفعات مرة ثانية برغم ما كانت تمطرهم به الحامية المصرية من نيران المدافع والبنادق ؛ فكانوا كلما سقطت جماعة منهم احتلت مكانها جماعة أخرى ؛ حتى وصلت طلائع الفرقة الروسية إلى أسوار القلعة نفسها .

وتسلق بعض جنودهم الأسوار الواطئة حتى وصلوا إلى الطيقان المعدة لأفواه المدافع ، ونفذوا منها ..

وهكذا وجد المصريون أنفسهم وجها لوجه أمام القوة الروسية وفى قلب حصنهم الحصين ، فدارت معركة دموية بالبنادق وأطراف الأسنة كان النصر فيها حليف الفرقة المصرية ، ففقد الروس شجاعتهم وارتدوا مذعورين إلى خارج الحصن .

فلما رأى قوادهم ذلك، ثارت ثائرتهم، وأحسوا بأن الانسحاب معناه الهزيمة

المحققة ، فلم تمض خمس عشرة دقيقة أخرى حتى تقدم الروس بهجوم ثالث ، وكانت بشائر الفجر قد وضحت من الشرق ، وفى نوره الضعيف عاود الروس القتال وتسلقوا المرتفعات وهم يدوسون على اشـــلاء مئات من رفاقهم وعلى أجساد الجرحى الذين لم يجدوا خلال هذه المعارك المتوالية من يحملهم إلى حيث تضمد جراحهم !

ولـكن الجنود وقد أوهن عزيمتهم الفشل هبط حماسهم وفقدوا الرغبـة الصحيحة فى القتال، فتقدموا مساقين بتحريض قوادهم ، فاماوجدوا من المصريين مقاومة أكثر شدة وصرامة ، ألقوا بسلاحهم وطلبوا النجاة حاملين ما استطاعوا حمله من قتلاهم وجرحاهم .

ولـكن الفرقة المصرية الباسلة لم تقنع بهذا النصر ، بل تبعتهم إلى خط دفاعهم وأجلتهم عنه جلاء شاملا كاملا .

وعند ما أشرقت الشمس فى صباح اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٧٤ ونشرت نورها على طابية العرب كانت العين تقع على منظر من أشد المناظر هولا ، فقد فرشت المرتفعات التى تقود إلى أسوار هذه القلعة بمئات من جثث الروس ومئات الجرحى الذين لم تحملهم سيقانهم على الهرب ، وارتفع من كل مكان دخان البارود والحرائق التى اشتعلت من فعل الـكرات وقنابل المدافع ، وتكدست أدوات الحرب من البنادق والطبول وآلات النسف والتخريب مما تركه الجيش الروسى فى تقهقره .

وفى هذه الموقعة الباهرة فقد الروس نحو ألفين من الرجال وخسروا ضعف هذا العدد من الجرحى ، ولكن خسارتهم كانت أشد فداحة من ذلك بسبب فقد عدد كبير من ضباطهم ، بل إن قائدهم الكبير «شلدز» فقد ساقه فى هذه الموقعة كما أصيب بعض أمرائهم بجروح قاتلة .

وكان قد أرسل القائد العام للجيوش التركية المصرية موسى باشا عند ما بدأ القتال إلى مركز القيادة العليا فى بلدة « شملا » التى لا تبعد كثيراً عن طابية العرب بأخبار الحصار ، وطلب نجدة من الجيوش التركية والمصرية المعسكرة هناك ، وكان قائد هذه الجيوش إذ ذاك السردار عمر إكرام باشا .

وفى اليوم الثانى من هزيمة الروس سمعت الحامية المصرية أصوات موسيقى عسكرية تقترب من المدينة ، وعند ما دنت من الطابية المجيدية الرابضة فوق السهول الممتدة خلف « سلسترا » بدت طلائع فرقة الخيالة المصرية قادمة من « شملا » تتقدمها الطبول وترفرف عليها الأعلام المصرية الحمراء يقودها القائمقام محمد صدقى بك ، وتلتها فرقة من المشاة ثم المدفعية الثقيلة تجرها الخيول والبغال ، ومع أن الطريق من شملا إلى سلسترا تكتنفه المرتفعات والغابات والأميال الواسعة من الأرض الجدباء القاحلة ، إلا أن وجوه الجنود كانت طافحة بالبشر والإيناس لأن قلوبهم كانت عامرة بالإيمان والثقة بالنفس .

وكانوا إذا توقفوا للراحة أسرعوا إلى ملء عربات الماء وإلى الاغتسال

وإلى صلاة الجماعة وراء أئمتهم الذين صاحبوهم من مصر ، وكانت مناظر الغابات لعيونهم التى لم تعتد رؤيتها على ضفاف النيل باعثا من بواعث المرح والسرور ، فكانوا يسرحون فيها جماعات جماعات يجمعون ثمار البرقوق ويزينون خيولهم بأغصان الكرز الجميلة .

وعند ما توقفت الحملة عند « راماناشكلر » للمبيت ، راح رجالها يحيون ليل رمضان كما كانوا يحيونه فى بلادهم بقلوب مفعمة سعادة ورضاء !

فاما اقتربت النجدة من طابية العرب اجتمعت الحامية المصرية على أسوارها تهتف لإخوانهم وترحب بهم ، ووقف القائد موسى باشا وحسين بك وغيرهما من رجال الحامية إلى جانب بوابة « اسطنبول » وهى إحدى بوابات القلعة ، لاستعراض الفرقة الجديدة ، وقد أعدت لرجالها مخابئ فى المغارات الواسعة التى شقتها الطبيعة فى مرتفعات ذلك التل ، وكانت تسع المغارة الواحدة منها مئات الجنود يعيشون فيها فى مأمن من شظايا القنابل التى كانت تتبعثر حول القلعة .

فاما تكامل العدد ، وأعيد تنظيم الحامية المصرية والتركية بانضمام رجال النجدة إليها اجتمع المجلس العسكرى وأقر الرأى على أن تهاجم بعض فرق الحامية الجيش الروسى فى قلب معسكره ، حتى يتوهم القائد الروسى أن الحامية المصرية قد أخلت الطابية بعد أن عجزت عن الدفاع عنها فخرجت هاربة تحت جنح الظلام ؛ وهكذا نجحت الحيلة .

ففى تلك الليلة وكانت قمراء ، وبعد أذان العشاء ، تسربت إلى خارج الحصن الفرقة الحادية عشر المشاة بقيادة أمير الآلاى محمد حافظ بك وتبعتها الأورط الأخرى ، وهاجمت الجناح الأيمن للجيش الروسى ، وكان هذا الجناح مكونا من ثمان فرق كاملة ، فظن القائد الروسى « سلفان » أن الحامية المصرية قد أخلت طابية العرب فأسرع لاحتلالها تصحبه خمس فرق من رجال هـذا الجناح ، فاجتاز الخندق ، وارتقى مرتفعات الحصن حتى وصل إلى أسوار القلعة فنفذت جنوده إلى قلب الحصن . . .

وهناك كانت الحامية المصرية مستعدة للقائهم ، وهكذا وجـد رجال النجدة أنفسهم وجها لوجه أمام أعدائهم ، وهم الذين طالما تاقت نفوسهم المتوثبة للمجد إلى التنفيس عما يخالجها من حب للتضحية والجهاد .

وكان الصراع عنيفا بين ندين شديدين ؛ أقسم الأول ليدافعن عن حماه حتى آخر رجل ، وجاء الثانى مستعديا راغبا فى الانتقام لما منى به من فشل ماحق ؛ فقاتل الروس قتال اليائس قتال من يعرف أن الفشل معناه الموت ولـكن الدائرة دارت على رؤوسهم . فلم تنفع النجدات ولم تشفع التضحيات التى بذلوها رخيصة فى خلال أربع ساعات كاملة .

لقد كانت بطولة الجندى المصرى باهرة متفجرة ، ذابت أمامها شجاعة الروس وفتر استبسالهم ، فدب الوهن فى صفوفهم وأخذت جموعهم تتقهقر دون انتظام . فلما أحسوا بأن الهزيمة قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى منهم رموا

بأسلحتهم وطلبوا النجاة من الطيقان وفتحات المدافع التى ولجوا الحصن منها وتبعتهم الجنود المصرية إلى أسفل الوادى . وفى هـذا الهرج أصيب القائد الروسى « سلفان » بجرح لم يبرأ منـــه ، وهكذا أبت طابية العرب أن تسلم لأعدائها مرة أخرى . . .

وبرغم هذه الانتصارات الباهرة المتوالية التى جعلت من رجال الحامية المصرية أبطالا تناقلت أخبارهم بلاد أوربا ورفعوا اسم مصر عاليا بين الشعوب والأمم ، فان إصرار روسيا ، تلك الدولة القوية ذات الملايين العديدة التى تستطيع أن تجند من رجالها جيوشا عظيمة تفوق الجيوش المصرية وحليفاتها عدداً ، والتى تستطيع أن تنفق فى إعداد هـذه الجيوش الملايين من الجنيهات دون تهيب أو عجز ؛ لم يدع مجالا لمهادنة أو تسليم .

إن هذا الإصرار ، وقد مضى على حصار قلعة العرب شهراً كاملا وأكثر من شهر دعى قواد الجيش المصرى إلى التفكير فيما عسى أن يأتى به الغـد من مفاجآت ؛ فضلا عن أن هذا النصر الذى حملوا تاجه خلال هذه المواقع الدموية المتوالية ليس من اليسير أن يباع رخيصا ، فإن الدم المصرى الذى أريق على ضفاف الدانوب فى سبيل مجد الوطن لا ينتزع من أصحابه إلا بالدم . . .

لقد بيت المارشال « باسكيفتش » العزم على أن يضرب الضربة القاضية ، وأن يجعل من طابية العرب مقبرة للمصريين فى أوربا . . .

فقد جمع تحت لوائه مائة ألف من الروس والقوقاز الذين عرفوا بالفروسية

والبسالة ، وجمع على مياه الدانوب عمارة بحرية ؛ نصبت على سفائنها المدافع الثقيلة ، ولم يمض يومان على المعركة الأخيرة حتى أمر المارشال بهجوم عام على طابية العرب والحصون المجاورة لها ، فبثوا الألغام تحتها وأعملوا النسف والتخريب ، فكان يوما شديد الهول حتى لم يبق فى « سلسترا » ساكن واحد ، إذ هرب أهلها إلى بطون الجبال يلتمسون الأمن والنجاة من نيران المدافع والمفرقعات التى كادت تدك المدينة من أصولها ، ولكن مآزنها البيضاء وقفت وحدها كأنها الحارس الأمين بعد أن خلت من أصحابها ، فأصابتها القذائف كما تصيب كل جندى باسل ولكنها مع ذلك لم تحن رأسا !

وفى وسط هذا الأتون المتقد خرج القائد التركى موسى باشا ومعه فرقة من رجال الحامية ، وألقوا بأنفسهم على القوات الروسية الكثيفة ففرقت جموعها وعبثت بوحدتها . وبينما كان القائد التركى يدير دفة القتال عند بوابة اسطنبول التى استقبل عندها بالأمس النجدة المصرية ، إذا بقنبلة تنفجر تحت قدميه ، وتحدث فجوة فى ركن المكان تردى فيها هذا القائد الباسل ، ولفظ النفس الأخير قبل أن يستطيع جنوده حمله بعيداً لتضميد جراحه .

كان حزن الحامية المصرية والتركية على وفاة هذا القائد العظيم حزنا شاملا ؛ بيد أنه خر كما يريد فى ساحة الحرب والشرف التى فى سبيلهما يحيى كل جندى عظيم ويموت كل مقاتل باسل قرير العين راضى النفس .

وإن كان موت القائد شديداً على نفوس جنوده ورفاقه ، لفقدانهم أبا باراً

بهم وقلبا رحيما عليهم ، إلا أن فى موته فى ساحة الحرب مثالا باهراً للتضحية التى هى رمز الجندية ، والسر الذى يخلق من رجالها مهما اختلفت طبقاتهم - من الجندى الصغير إلى القائد العظيم - أبطالا يقدسهم أبناء الوطن كما يذكرهم أعداؤهم بالإعجاب والإكبار .

وهكذا امتدت أيام هذا الحصار الرهيب ، وهكذا لم تثن القوة عزيمة الجيش المصرى ، بل كان أولئك الجنود البواسل كالصخور الشماء منعة وكرامة ، وكانوا يحرسون طابية العرب ويقطعون الطريق إلى سلسترا كما يحرس النسر عشه ، والأسد عرينه . . .

ولم تقعد الجيوش الروسية تضحية عن الهجوم على هذه القلعة ، التى لم تكن صلابة أحجارها بأكثر قوة من صلابة حراسها ، فليست طابية العرب بالقلعة الحصينة العاتية التى تعجز الآلاف عن الوصول إليها ، بل هى تلك الحامية المصرية الباسلة التى جعلت من صدورها أسواراً حولها وحاجزاً لها .

وفى كل مرة هاجمت الجيوش الروسية قلعة العرب ارتدت عنها وقد خسرت قائداً أو جندلت عظيما من عظمائهم ، وقضت على المئات من الجنود .

وكانت القذائف التى ألقتها المدافع الروسية لا حصر لها وكثير منها وقع دون أن ينفجر . فجمع المصريون منها الآلاف فحاربوا أعداءهم بالسلاح الذى جردوه عليهم ، كما بثوا الألغام الفتاكة التى كانت تدك أسوار الطابية ، فكان إذا ما سقط ركن منها أسرع المصريون إلى إعادة بنائه تحت حماية

بنادقهم المحكمة التصويب .

وحدث أثناء الهجوم العشرين أن تهدم جانب من جدار الحصن وأحدث ثغرة تسللت منها سرية من الروس ، فما كان من رجال الحامية إلا أن سدوا هذه الثغرة بأجسامهم متساندين كالبناء المرصوص ، ووقف إخوانهم من ورائهم يطلقون النيران على هؤلاء الغزاة حتى ركن من بقى منهم حيا إلى الفرار .

وفى تلك الليلة ، وفى ضوء المشاعل التى كانت تطفئها الريح عقد الروس مجلسا حربيا ، وكانت وجوه المؤتمرين عابسة كالحة ، تعبر عما تفيض به نفوسهم من يأس وخيبة أمل .

لقد أصبحت سهول سلسترا مقبرة لآلاف من الروس ، واستحال ذلك المعسكر العظيم إلى مصحة افترش أرضها الآلاف من الجرحى والمنكوبين ، والآلاف من المرضى الذين فتكت بهم الأسقام والأوبئة .

وفى هذا المجلس الحزين قرر الروس الانسحاب والفرار من الميدان بعد أن وقفوا حول أسوار سلسترا خمسة وأربعين يوما .

وما أن سرت الأخبار بين الجنود المنهكين منهم والمرضى ، حتى تهللت نفوسهم فرحا للخروج من هذا الجحيم المقيم .

وعند ما تقدم الليل فتحت المدافع الروسية أفواهها ترسل الحمم إلى كل مكان ، ولم تنج من فتكها المدينة المهجورة ولم ترع حرمة للقباب والمآذن .

وفى دوى هذه القذائف وتحت نيرانها انسحبت القوات الروسية بعد أن

خلفت وراءها خمس عشرة آلاف جثـــة من ضحاياهم ، وخلفت وراءها طابية العرب التى وإن دكت أركانهـا إلا أن وراء أسوارها المخربة بقيت الحامية المصرية نابضة بالحياة كالقلب الكبير .

وما أن بزغ فجر الغد ، حتى كانت فلول جيوش القيصر قد اختفت وراء الدانوب ولم يبق وراءها من آثار إلا ذلك المعسكر الفسيح ، الذى امتلأت أركانه بأدوات الحرب الثقيلة التى عجزوا عن حملها معهم كما امتلأت بأشلاء الإنسان والحيوان .

كان ذلك الصباح بهيجا كبهجة ما حمله من أخبار النصر .

لقد أصبحت سلسترا حرة كما كانت فعاد إليها أهلها من الكهوف والأغوار

و نادى المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة شكراً لله على منته .

وانتشرت أخبار هذه البشرى فى كل مكان ، ونقلت أسلاك البرق ذكرى هذا النضال الباهر ، وكيف أن روسيا العظيمة قد عادت أعقابها ، وأن أبناء مصر أبناء الفراعنة الأقدمين قد ضربوا مثلا نادراً للبطولة والكرامة .

وتجاوبت أوربا أصداء هذه البطولة ، وأصبح اسم مصر على كل لسان .

لم ينقض يوم أو بعض يوم حتى دوت من جديد طلقات البارود من مرتفعات طابية العرب ومن أركان سلسترا نفسها ..

ولـكنها ليست دوى قتال جديد ، بل إنها مظاهر البشر بيوم سعيد .

كان ذلك اليوم عيد الفطر المبارك !

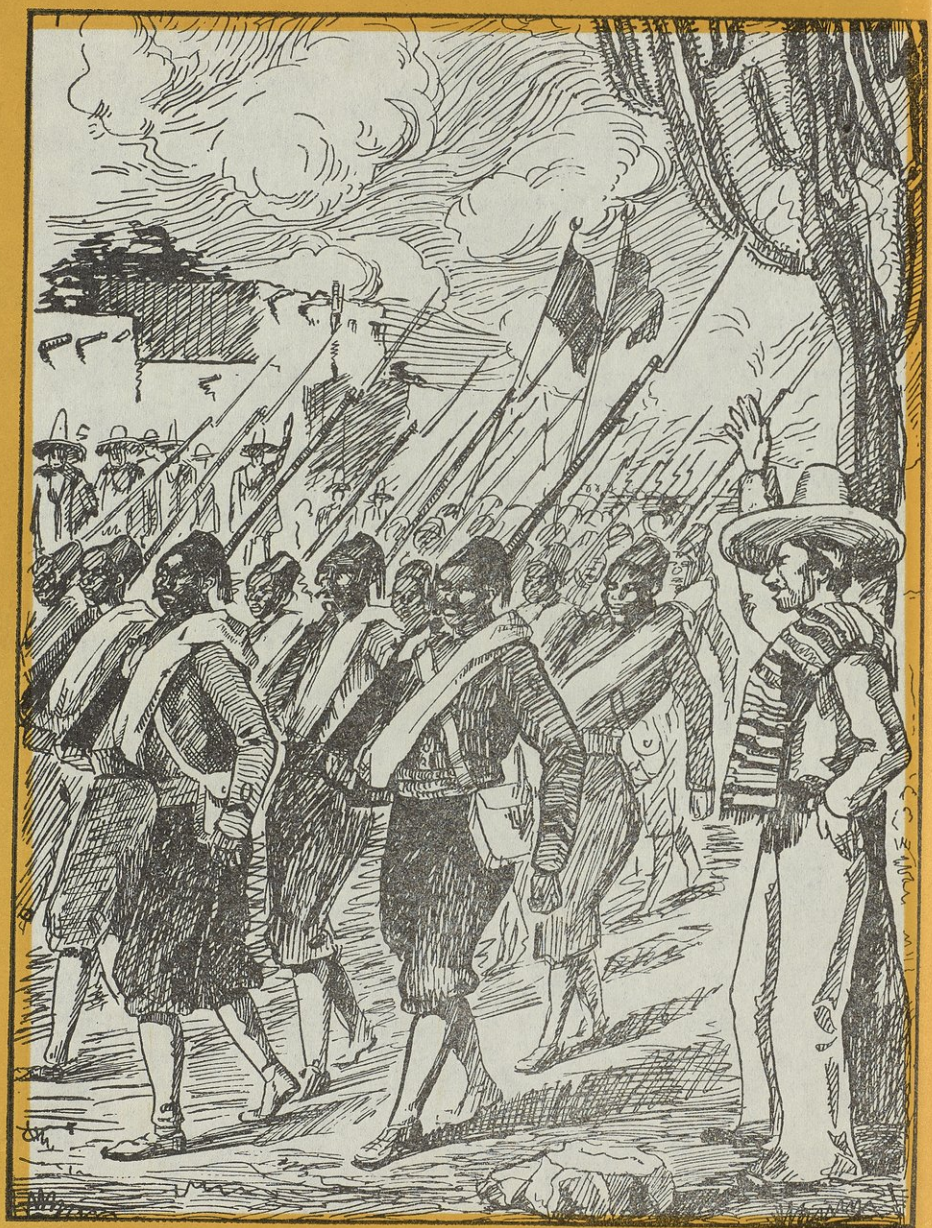

« ودخلت الحملة المصرية عاصمة المكسيك »

« فى المكسيك »

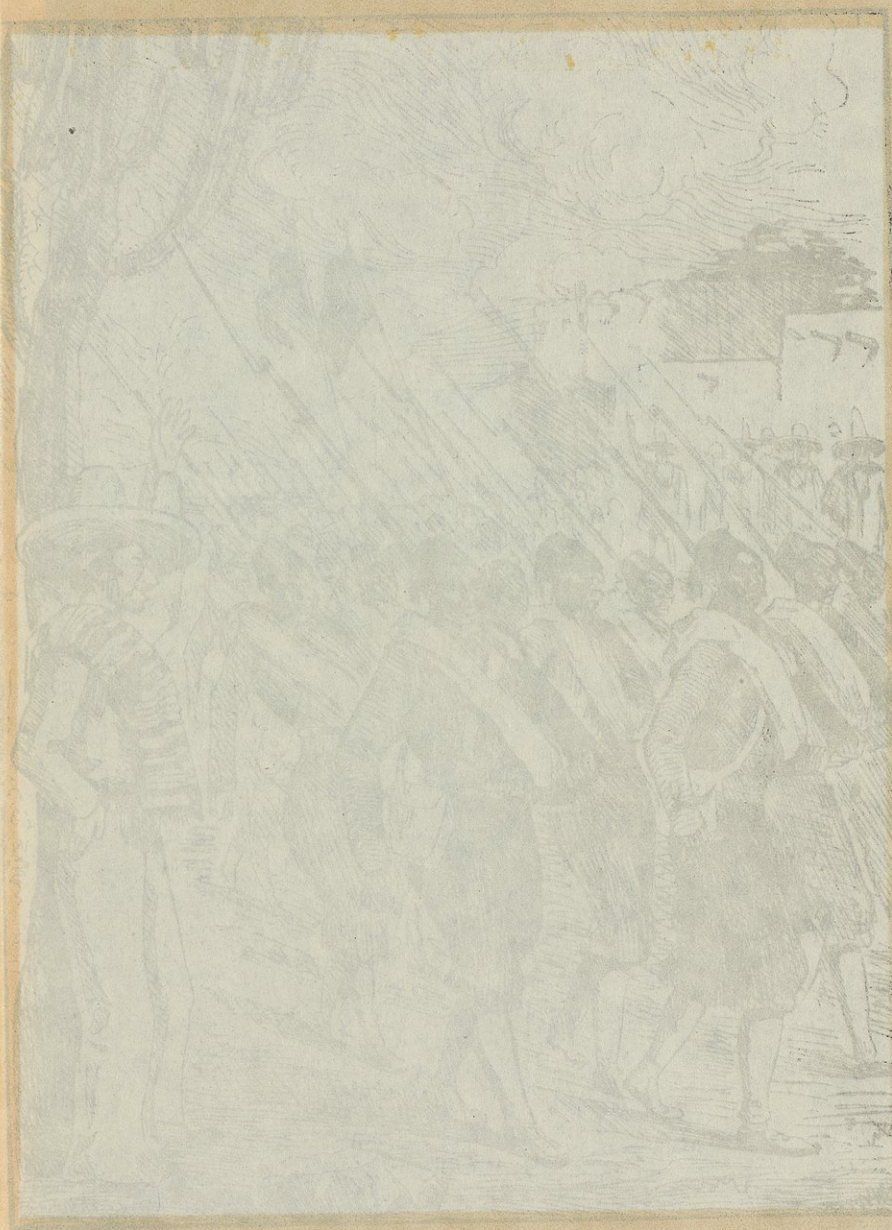

في المكسيك

فى ضحى يوم من أخريات عام ١٨٦١ وصل رسول إلى معسكر الجيش المصرى فى ضاحية المطرية .

كان هذا الرسول يحمل رسالة شفهية إلى أحد ضباط هذا المعسكر ، بيد أن الضابط لم يكن موجوداً إذ ذاك . ولكن الرسول أصر على أن يبلغ هذا الضابط فحوى الرسالة التى يحملها تواً ، فكان على قائد المعسكر أن يجد فى البحث عن هذا الضابط إذ كان اليوم من أيام راحته .

كان هذا الرسول مبعوثا من الوالى نفسه محمد سعيد باشا ، وكان هذا الضابط هو الصاغ جبرة الله محمد السودانى الذى كان معسكرا بأورطته السودانية فى المطرية .

ولم ينقض هذا اليوم إلا وكان الضابط جبرة الله افندى فى طريقه إلى قصر عابدين يلتمس التشرف بالمثول بين يدى الوالى ، وقد اضطربت الأفكار فى ذهنه إذ كان يجهل الغرض من هذه المقابلة المفاجئة ، نعم إن سعيد باشا كان يحبوه دائما بعطفه ورعايته منذ أن استرعى نظره عند زيارته للخرطوم قبل ذلك بأربع سنين ؛ ولكن استدعاءه منفردا ، على هذه الصورة من العجلة ، أثار فى نفسه الشكوك والهواجس .

وعند ما دخل باب القصر تلقاه صالح بك حجازى وأخبره بأن مولاه فى انتظاره ، ولم تكن هى إلا دقائق حتى مثل الصاغ جبرة الله افندى بين يدى سعيد باشا ، بينما وقف إلى يمينه رجل فرنسى عرفه جبرة الله بأنه شارل جلياردو بك من علماء الفرنسيين فى مصر .

لقد تبددت هواجس جبرة الله وانقشعت ؛ إذ تلقاه سعيد باشا بايناس وابتسام والتفت إلى جلياردو بك وقال :

إن هذا هو الضابط جبرة الله الذى رأيت أن أكل إليه أمر هذه المهمة .

والتفت إلى جبرة الله هاشا وقال :

— أليس كذلك يا جبرة الله افندى ؟

— إننى دائما عبد مولاى .

— تعلم يا جبرة الله افندى إن حليفنا إمبراطور فرنسا نابليون الثالث قد شن حربا ضد المكسيك الثائرة ، ولكن الأمر مع ذلك لم يستتب له فى تلك البلاد ؛ وقد جاء حليفنا العظيم يطلب النجدة من مصر .

— إن هذا الفخر يا مولاى الذى أصاب الجيش المصرى فى أوربا يعود فضله إلى رعاية سموكم ، وأن كل جندى فيه ليزهو فخرا عند ما يذكر الأيادى السمحة التى غمر بها مولاى جنوده .

— لقد أصدرنا أمرنا بأن تسافر فرقة مكونة من ألف وخمسمائة جندى

من أبناء السودان لنجدة حليفنا العظيم ، وأصدرنا أمرنا باختياركم قائدا لهذه الفرقة كما أصدرنا أمرنا بترقيتكم إلى رتبة البكباشى .

— إن هذا الشرف يا مولاى لا يعادله شكر فليس لنا إلا أن نبتهل إلى الله أن يديم عزكم وملككم أبد الآبدين .

فما أن انتهى الضابط خيرة الله افندى من كلامه حتى أذن له الباشا بالانصراف ، فخرج وهو يتمتم بكلمات الدعاء والابتهال .

مضى شهران كاملان منذ أن حظى البكباشى جبرة الله محمد السودانى بمقابلة سعيد باشا ، وفى هذه الأثناء صدر الأمر إلى الفرقة السودانية المعسكرة فى أسوان بالانضمام إلى الأورطة المعسكرة فى المطرية ، وأصبح تحت إمرة البكباشى جبرة الله محمد ألفا وخمسمائة من الجنود السودانية .

وصدرت الأوامر إلى إدارة المهمات فى القلعة بإعداد الملابس الكاملة لهؤلاء الجيوش وإمدادهم بالخيام وتزويدهم بالأدوات الطبية وإعداد البنادق والأسلحة والذخائر اللازمة لهم ، وسرعان ما استكملت حاجات هذه النجدة . وسافر رجالها إلى الاسكندرية فى انتظار ترحيلهم على سفينة فرنسية إلى أمريكا .

وفى أحد أيام الصيف البديعة شهد سعيد باشا فى الاسكندرية استعراضا رائعا لهذه الفرقة فى يوم سفرها ، وكان ميدان «محمد على» فى الاسكندرية

تزينه الأعلام والغصون الخضراء وقد تجمع أهل الاسكندرية ما بين هـذا الميدان والميناء لتوديع هؤلاء الجنود البواسل .

فى ذلك اليوم نفسه غادرت الباخرة الفرنسية شواطىء مصر إلى مرسيليا، وصحب الفرقة «شارل جلياردو بك» العالم الفرنسى «وصالح حجازى بك» لتنظيم شئونها الإدارية . وبعد عشرة أيام من هـذا التاريخ وصلت الفرقة المصرية ميناء مرسيليا . ولم تكد الباخرة تقترب من الميناء حتى خرجت عشرات المراكب والزوارق تحيي القادمين ، وأطلقت البواخر الراسية صفاراتها ترحيباً ، وكانت هذه السفن مشحونة بالجنود الفرنسية فى طريقها إلى المكسيك وقد بلغ عددها ثلاثين ألف مقاتل .

وأذن لرجال النجدة المصرية بالنزول فى مرسيليا للتفرج عليها ، فخرج هؤلاء السودانيون البواسل يحوسون خلال المدينة بأزيائهم الأنيقة وطرابيشهم البهيجة فكانوا موضع الرعاية أينما ساروا وحلوا .

وفى مساء تلك الليله دعى البكباشى جبر الله محمد للعشاء على مائدة الجنرال «فوريه» القائد العام للجيوش الفرنسية وحلفائها فى المكسيك ، كما دعى أركان حربه الصاغ «محمد الماس» و«فرجونى» و«عبدالله سالم» واليوزباشى «إدريس نعيم»؛ وأهدى الجنرال « فوريه » لكل منهم علبة أنيقة للسعوط كتذكار لهذه الحملة .

وفى أول اغسطس تحرك هذا الاسطول الكبير متجهاً صوب جبل طارق

ومن ثم انحرف صوب أمريكا الوسطى .

نعبر مع القارىء المحيط الأطلسى لنصل إلى جزر الهند الغربية ونخلف هذه الجزر وراءنا حتى نبلغ شواطىء المكسيك ؛ فإذا ألقينا المراسى عند ميناء المكسيك الكبيرة (فيراكروز) وفى ذلك الوقت من العام وقد أرسلت شمس الصيف أشعتها كأنها لهيب منبعث من أتون هائل ، يحس القادم بأن الحياة فى هذا الجانب من الكرة الأرضية لا يقدر على احتمالها إلا من خبر الحياة الاستوائية بشمسها ومطرها ، فلا عجب إذا اختار سعيد باشا لهذه الحملة فرقة سودانية ممن لا تفت فى عضدهم قسوة الطبيعة ولا شظف العيش .

فلا يكاد الضحى يرتفع إلا والشمس قد اشتدت وقست ، وجعلت مياه البحر تفور وتزبد ، وأصبح السير فى طرقات «فيراكروز» ضربا من المجازفة .

ألقى الأسطول الفرنسى الجديد مراسيه ، وعند هذه المدينة نزلت الحملة المصرية فلم يثن عزمها قسوة ذلك اليوم الصائف الذى جعل الجيش الفرنسى يؤجل نزول رجاله حتى المساء .

وكان من بين من استقبل الحملة المصرية فلول الجيش الإنجليزى والإسبانى، بعد أن نفضت الحكومتان الانجليزية والإسبانية أيديهما عن شئون المكسيك، فانسحبت الفرق الانجليزية والإسبانية قبل ذلك التاريخ بخمسة شهور، وها هى ذى

فلول الجيشين فى طريقها إلى أوربا كذلك .

وكانت «فيراكروز» فى حركة دائمة مع حرها اللافح ، وكانت القوات الفرنسية تحتل المدينة ، إذ عسكرت على المرتفعات المحيطة بالميناء لتمنع الفلاحين الذين يتسللون خفية للسرقة أو النهب ، ولم تكن المكسيك هادئة وادعة كما يظن الغريب ، فمع أن الفرنسيين قبضوا على ناصية الحكم فى كثير من أنحاء البلاد ، إلا أن مقاطعات عديدة كانت تحت حكم الثوار وكانت عاصمة المكسيك نفسها فى حوزتهم .

كان على الفرنسيين أن يبذلوا جهداً جباراً فى حكم هذا الشعب وفى مد سلطانهم فى بلاد أصبحت مهداً للدسائس والثورات والحروب التى لاتنقطع ، وقد أصبح هذا الحمل ثقيلا منذ أخلى الانجليز والاسبان أيديهم وقفلوا راجعين إلى أوربا ، حتى ان القوات الفرنسية هزمت فى «سنكودى مايو» قبل ذلك بثلاثة أشهر ، وأضاف دياز قائد المكسيك مجداً إلى اسمه فرفعت الثورة رأسها فى كل مكان .

فى مساء اليوم الذى وصلت فيه القوات الفرنسية والمصرية إلى « فيراكروز » أقام الجنرال « دى لاجرافيير » حفلة رائعة فى سهل فسيح فى شمال المدينة ، وكانت الليلة مقمرة باهرة الضوء ، وكان كلما تقدم الليل تلطف الهواء ، فأقيمت مئات الموائد حول الساحة الكبرى ونحرت مئات العجول والخراف

وقدمت عراجين الموز ، وسكبت جرار « البلكه » ذلك الشراب المكسيكى القوى الذى يثير الأعصاب ويلعب بالعقل ؛ فكان فعله قاسياً على الجنود الفرنسية الذين لم يعتادوا شرابه فطفقوا يرقصون ويغنون .

ووجدت الفرقة السودانية متعتها تلك الليلة فكانت أشجار النخيل تنسى الغريب بأنه على مسيرة آلاف الأميال من وادى النيل، وكان فطير الطرطيرا الذى قدم لهم يذكرهم بخبز الأذرة المخمر طعامهم السودانى الأصيل .

ثم جاءت فرقة من الموسيقى المكسيكية ولعبت «بالماريمبا» ، فلما ارتفعت نغمات الموسيقى اندفعت بعض الراقصات المكسيكيات نحو الساحة الوسطى بثيابهن الملونة الزاهية وشيلانهن الحريرية ، فعلا صياح الإعجاب ، وتقدم بعد ذلك جماعة من الجنود الفرنسية إلى الساحة وعرضت ألعابها .

ثم جاء دور الفرقة السودانية فارتفعت فى هواء الليل ألحان عربية كثيراً ما رددتها أركان الخرطوم وأم درمان ، وارتفعت دقات الطبول ، ودوى تصفيق الأكف ولمعت السيوف فى ضوء القمر فكان منظرا فاتنا رائعا .

بعد أن تم نقل المعدات العسكرية إلى الساحل عقد مجلس عسكرى حضره البكباشى جبره افندى وعبد الله سالم افندى واليوزباشى إدريس نعيم ، فكان مما قرره أن يشترك الجيش المصرى بأورطة واحدة تحت قيادة الصاغ فرج ونى فى حصار « بربلا » ، أما بقية النجدة فتشترك فى الزحف على مدينة

المكسيك نفسها .

أما « بربلا » فقد سقطت بعد ذلك بشهرين وفرت الحامية المكسيكية وانضمت إلى حامية العاصمة التى كان يدافع عنها القائد « دياز » .

وجاءت أيام الصيف برياحها العاصفة السافية التى كانت تشوى الوجوه فعمد الثوار إلى ردم الآبار فى طريق الجيش ، وسرعان ما استحالت السهول إلى برية جرداء لاينبت فيها إلا أشجار الصبار التى كانت ترتفع قامتها إلى بضعة أمتار ، وكان الجيش يقطع أميالا طويلة دون أن يمر بقرية أو بئر أو مكان للراحة والقيلولة من وهج الشمس ، بيد أن الجيش حمل كفايته من الماء فى الصناديق والجرار والقرب على ظهور الخيل والبغال .

وسقط فى الطريق سبعة من الجنود الفرنسيين من أثر فتك الشمس بهم ؛ فلما كان أول يونيه وصلت الحملة حول مدينة المكسيك ونصبت المدافع على المرتفعات المجاورة وأخذت تطلق قنابلها أسبوعين كاملين والمدينة عاكفة على المقاومة .

وفى مساء اليوم السادس عشر تسللت الأورطة الثالثة بقيادة الصاغ محمد الماس وسارت زحفا من المنحدرات الشرقية وتبعتها فرقة بقيادة الضابط « جاك فرنسوا » حتى إذا تفتح الصباح كانت الفرقة المصرية على أبواب المدينة ، فصدرت الأوامر إلى المدفعية فأطلقت نيرانها المتواصلة على استحكامات المدينة

الجنوبية ، ولم تشعر حاميتها إلا والفرقة المصرية تنفذ إلى المدينة تتبعها بعض الفرق الفرنسية ؛ فاستولى الذعر واضطرب حبل النظام ودار القتال فى شوارع المدينة بالبنادق والسيوف ، وكان أهل المدينة قد سئموا الحصار فساعد ذلك على ارتباك قوات الثوار الذين لم يجدوا بداً من التقهقر والتحصن فى الاستحكامات الجنوبية ، فلما أقبل الليل انسحب رجال القائد « دياز » وتركت المدينة فى يد الجيش المنتصر ، وفى هـذا الهجوم فقد المصريون سبعة عشر جنديا وضابطا برتبة ملازم .

وهكذا دخلت عاصمة المكسيك نفسها تحت الحكم الفرنسى ، وهكذا ساعدت الحملة المصرية الجيش الفرنسى لا بقوة العدد بل بالبسالة النادرة والإقدام، فلم يمض يومان على الاستيلاء على مدينة المكسيك حتى استتب الأمر فيها ، ورجع أهلها إلى حياة السلام ، ولما كان يوم الأحد خرج النساء والفتيات فى ملابسهن الإسبانية المزركشة وامتلأ شارع القديس فرنسسكو بالعربات ، كأن الحرب لم تكن دائرة فى شوارع المدينة قبل ذلك بأيام معدودات .

وعسكرت الفرقة المصرية فى قلعة « كابولتيبك » بعد أن انتخبت حكومة وقتية تحت إشراف السفير الفرنسى « دبوا دى سالينى » الذى أقام لأعضائها حفلة شائقة حضرها ضباط الجيش الفرنسى ورجال الحملة المصرية ، وفى هذه الحفلة أشاد السفير الفرنسى بما أقدمت عليه الفرقة المصرية من ضروب البسالة فى

الاستيلاء على عاصمة المكسيك، وختم كلامه بأن هنأ الصاغ محمد الماس وقدم له سيفا منقوشا تذكاراً لفتح مدينة المكسيك.

مضى عام على احتلال المكسيك وأخذ الثوار ينزحون إلى أطراف البلاد ويحتمون بالغابات والأحراش والأودية المنقطعة.

وأخذت أخبار المكسيك تملأ الأذهان فى الشرق والغرب، وأخذ ملوك أوربا يتشاورون ويتبادلون الرأى، إذ عزم الأمبراطور نابليون الثالث على أن يجعل من المكسيك مستعمرة فرنسية مستترة، ولكن هذا الحلم لا يتحقق إلا إذا قضى على الثورات، حتى أصبحت الثورة عالما على المكسيك.

إذاً فلينصب عليها امبراطورا..

وفتش نابليون بين قصور أوربا باحثا عن الامبراطور المنشود، فوقع اختياره على الأمير «مكسمليان» النمسوى.

واستفتى الشعب المكسيكى، فقبل.

وجاء «مكسمليان» مع عروسه الأميرة شارلوت يحملان مسوح عظمة القصور النمسوية، وغرس حضارة من أعرق الحضارات الأوربية.

وفى اليوم الثانى عشر من شهر يونيه ـ وبعد عام كامل من دخول مدينة المكسيك ـ كانت ميادين العاصمة قد زينت بأغصان النخيل ولفائف الزهور، واجتمعت حولها آلاف النساء والرجال فى أبهى الحلل وأفخر الزينات، جاءوا

من كل ركن من أركان تلك البلاد لمشاهدة أمبراطورهم الجديد الذى زين رأسه ورأس زوجته تاج جديد ، ودقت أجراس الكتدرائية الكبيرة مؤذنة بأن عهد الثورات والحروب والدكتاتوريات قد انقضى وأن المكسيك قد أصبحت أمبراطورية وطيدة الاساس . .

ودقت الطبول وصدحت الموسيقى ، وخرج الامبراطور فى طريقه إلى القصر بين صفوف من الحرس النمسوى والفرنسى والبلجيكى ، حتى إذا اقترب من القصر شق طريقه بين ألف من الجنود المصرية ، الذين ارتدوا ملابس الاستقبال البديعة وتقدمهم ضباطهم بأزياء القصب الرائعة فحياهم الامبراطور تحية أسبغها كل ما يحمله لرجال الحملة المصرية من التقدير والإكبار ، إذ هم بعض الذين شيدوا هذا العرش بسيوفهم .

انقضت أيام الفرح والابتهاج ، وعكف الامبراطور على شئون ملكه الجديد ، بعد أن وزع الأوسمة والنياشين على ضباط الحملة المصرية وجنودها كما وزعها على الجيوش الحليفة الأخرى .

ولكن الثورة لم تمت ، إذ أن هذا العرش ما زال فى حاجة إلى الرعاية ، مع أن النصر كان حليف جيوش الاحتلال . إن الناظر ليخال له أن أهل المكسيك قد ركنوا إلى السلام والوئام ، وأن الثورات قد أصبحت تاريخا ، وأن الثوار قد فترت عزائمهم ولم تعد الخطب الحماسية التى كان يلقيها « جواريز »

أو « دياز » تستثير النفوس وتلعب بألباب الجماهير ؛ ولكن روح الثورة لم تمت .

وكانت أخبار الانتصارات تتوالى على أبواب القصر ، فلم يكد دياز يستقر فى « أوجاكا » حتى جرد الامبراطور حملة بقيادة الجنرال « بازان » فى شتاء ذلك العام دحرت جيوشه واحتلت المدينة فتفرقت جموعه شمالا وجنوبا وركن دياز نفسه إلى الهرب ، وأمر الإمبراطور بإعدام من قبض عليهم من الثائرين .

وتعقبت الجيوش جماعات الثائرين للقضاء الأخير على زعماء الفتنة .

فسارت فرقة مصرية بقيادة البكباشى جبرة الله والصاغ فرج ونى شرقا إلى « يوكاتان » ، وما كادوا يقتربون من الشاطئ حتى دخلوا فى منطقة سهلية واطئة تتخللها البرك والمستنقعات وتكتنفها الغابات الاستوائية الملتفة . لقد كانت حرارة الصيف لا تحتمل وكانت الأمطار لا تصمت وأضحى الجو خانقا بفعل أبخرة الماء المنعقدة فى الهواء ، وكانت الحملة لا تمر إلا على قرى فقيرة يسكنها وطنيون فى بيوت من الطين ، وأكواخ من القش يعيشون فيها عيشة الكفاف ، وكانوا إذا اقتربت الحملة يفرون إلى الأدغال ، فإذا ما أيقنوا من مسالمة رجالها رجعوا إلى بيوتهم واختلطوا بهؤلاء الغرباء وتبادلوا معهم الطعام والشراب من اللبن والجبن والتبغ والموز ، وعقد بعضهم عرى الصداقة معهم فانضموا إلى الحملة لكشف الطريق ، إذ كان الثوار يسومونهم سوء العذاب

ويعتدون عليهم إذا امتنعوا عن تزويدهم بالطعام أو تقديم ماشيتهم وشرابهم إلى الجنود ، وكانوا لا يتورعون عن حرق القرى وسبى النساء .

وفى أخريات أغسطس وصلوا إلى قرية « ماريا » ، وكم كانت دهشة جنودنا عند ما ألفوا أنفسهم فى مدينة أثرية ذات معابد من الحجر لا تختلف هندسة عما ألفوه فى مصر من آثار فرعونية ، وكانت تماثيل أبى الهول التى تزين مداخل هذه المعابد كتماثيل أبى الهول فى الأقصر ، أما النقوش التى حفرت على جدرانها فما أقربها شبها بالكتابة الهيروغليفية القديمة .

وعسكرت الحملة إلى جوار القرية ، وقد امتدت الغابات الكثيفة إلى شرقيها ، وبلغ الاعياء والجهد مبلغه فى النفوس وانتشرت الحمى بين الجنود ووقع الكثير منهم صرعى فتكها ، واشتد هطول الأمطار ، ثم قست وطأة الحمى فلم يكن يمر يوم واحد دون أن تفقد الفرقة بعضا من رجالها الأبطال ، ولكن ذلك لم يقعدهم عن القيام بواجبهم فكانوا يرسلون حملات متقطعة إلى المرتفعات المجاورة التى كان يأوى إليها الثوار .

وفى ذات ليلة شاهد بعض حراس المعسكر وميضا يضىء ويختفى فى الغابة التى تمتد إلى جنوب القرية ، وكانت الليلة مظلمة ممطرة ، فأصدر البكباشى جبرة الله أمره للسرية الأولى من الحملة بالتقدم إلى مدخل الغابة ، وكان جبرة الله قد أصيب بالحمى الصفراء ، فسارت السرية مختفية فى الظلام

حتى اقتربت من الأشجار المنثورة هناك ؛ ومضت ساعة أو بعض ساعة وذلك الضوء لا يقترب بل كان يضىء ويخفت المرة بعد المرة ، عند ذلك خرج الملازم معتوق افندى ومعه خمسة من الجنود مقتربين من مصدر الضوء المنبعث وما كانت أعظم دهشتهم عند ما وجدوا المكان خاليا وأن مصدر ذلك الضوء آلاف من الصراصير الفسفورية التى تعيش فى تلك الأدغال والتى تتجمع وتبعث نوراً قويا من أجسامها يضىء المكان فجأة ، وفى أقل من لمح البصر يخبو الوهج فيعود المكان إلى ظلامه .

رأى الملازم معتوق افندى أن يقضى الليلة محتميا بأشجار الغابة الكثيفة من سيول الأمطار المتدفقة ، ولكن الليل لم ينتصف حتى سمع طلقات البارود فجأة من ناحية المعسكر ، ثم أخذ الدوى يرتفع ويتزايد فأيقن بأن الثوار قد هاجموا معسكر الحملة خلسة تحت ستار الظلام والمطر ، بعد أن انفصلت منها هذه النجدة .

وسرعان ما ولت الفرقة ظهورها راجعة إلى المعسكر ؛ وأخذت نيران الحرائق التى شبت فى أكواخ القرية تنير الطريق أمامهم . وما اقتربت من المعسكر حتى وجدت نفسها وجه لوجه أمام خمسين من الثوار الذين فضلوا الإنسحاب عند ما أحسوا بعودة رجال النجدة ، فكان صراعا قاسيا استعملت فيه البنادق والسيوف واختلط فيه الأمر على المقاتلين تحت

المطر المتدفق والظلام المخيم الذى ما كان ليبدده إلا لهيب الحرائق أو وميض البارود .

ولكن القتال لم يدم نصف ساعة حتى بدأت الفرقة تسيطر على الموقف ، عند ذاك ركن الثوار إلى الهرب بعد أن فقدوا نصف عددهم أو أكثر .

ولكن هذا النصر الباهر لم يرسل فى نفوس هؤلاء الأبطال موجة الفرح ، لأن البكباشى جبرة الله افندى أصيب برصاصة طائشة أردته قتيلا وهو على باب الكوخ الذى كان ينام فيه ، إذ خرج ليدير دفة القتال بنفسه بينما كان من الضعف والوهن من أثر الحمى بحيث لم تعد تحمله ساقاه ، وهكذا مات ذلك البطل الشهيد ودفن فى المكسيك بعيداً عن الوطن والأهل ، يذكر أبناء الأجيال القادمة بذلك الدم المصرى الذى أريق فى تلك البلاد النائية فى سبيل رفعة الوادى .

بعد وفاة البكباشى جبرة الله تولى أمر الحملة المصرية فى المكسيك الصاغ محمد ألماس ، الذى رفعه سعيد باشا إلى رتبة البكباشى ؛ واستمرت الحملة فى المكسيك حتى أواخر تلك السنة ، وقد استتب الإمن وقرت الحال للامبراطور الجديد .

بيد أنه فى يناير سنة ١٨٦٧ وردت الأوامر بسحب الجيوش الفرنسية

« .. فلما اقتربت البعثة خرج امتيسا ووقف على عتبة الكوخ .. »

الملك امتيسا »

عند ذلك بدت طلائع الفرقة من « قوس النصر » تتقدمها موسيقاها وقد ارتدى رجالها ملابس الاحتفال البيضاء وتوجوا رؤوسهم بالطرابيش وصدورهم بكثير من الأوسمة ، فهتفت لها الجماهير المحتشدة وصفقت كثيرا . وقبيل انصرافها قدم شاهين باشا البكباشى « محمد الماس » إلى الامبراطور فصافحه ومنحه وسام « الصليب الحربى » كما منحه من قبل « رتبة شفاليه » من فرقة الشرف .

وعند ما وصلت الحملة المصرية الظافرة إلى الاسكندرية ، أقيم لها احتفال رائع فى فناء قصر رأس التين حيث استعرضها الخديو إسماعيل وفى معيته شريف باشا ولطيف باشا وزير البحرية المصرية ؛ ثم تفضل سموه ومنح البكباشى محمد الماس رتبة الأميرالاى تقديرا لجهوده ووطنيته ، كما وزعت الرتب والمنح على أعضاء الفرقة .

لقد اغتبطت مصر بعودة هذه الفرقة المصرية المظفرة ، وسرت أخبار عودتها إلى أعالى الوادى ، فعم السودان هزة فرح لأن أبناءه رجعوا إلى الوطن وقد كللت رؤوسهم تيجان الغار والانتصار .

الملك أميتسا

كان نقيق ملايين الضفادع التى تعيش فى البرك والأغوار وعلى ضفاف النهر نفسه ، موسيقى فطرية تدعو الناس للنوم والرقاد ؛ ولكن العيون لم تكن تعرف للنوم سبيلا فى تلك الليلة .

أصبحت تلك البقعة النائية على ضفاف النيل ، التى لم تطأها من قبل حذاء رجل متمدن ، ولم يدوِ فى فضائها من قبل إلا عواء الذئاب وزئير الأسود ، ولم يهتك ستار ليلها مصباح ، أصبحت هذه البقعة كالواحة الجميلة فى قلب الصحراء الغبراء ، وقد غزتها رسل الحضارة والمدنية ، يحملها إلى أطراف الوادى أبناء مصر ، الذين ما جاءوا كما جاء الأوربى إلى قلب أفريقيا لاصطياد الأرقاء أو سلب أبناء تلك البلاد خيرات أرضهم ، بل إنهم نزحوا من مصب الوادى إلى منبعه لنشر لواء الحضارة الذى حملته مصر منذ ألفى سنة . .

كانت تلك ليلة ٢٦ أبريل عام ١٨٧١

وكان المكان قرية للعبيد على مياه بحر الجبل ، أحد موارد النيل الأعلى هى « غوندكرو » .

وهناك على ربوة عالية تطل على مياه النهر ، ألقت الحملة المصرية المظفرة عصا التسيار . وما أسرع أن أحالت تلك البرية الموحشة إلى مدينة عسكرية

نصبت خيامها البيضاء صفوفا متوازية ، وأقيمت حولها المتاريس والخنادق ؛ وفى ميدانها الأوسط نصبت صارية بلغ علوها خمسة وعشرين متراً ، واصطفت إلى جانب الشاطئ ثلاثون سفينة شراعية تتقدمها باخرتان نيليتان .

ولم تكد تختفى شمس ذلك اليوم حتى لمعت فوق تلك الربوة مئات المصابيح والمشاعل ، وطفق الجنود يعملون فى إعداد هـذا المعسكر من حفر وتعبيد للطرق وإقامة أبراج المراقبة ؛ وكان كل شىء يدل على أن الاحتفال العسكرى فى الغد سيكون باهراً فاخراً .

وأشرقت الشمس فى صباح يوم ٢٦ مايو وكأنها على موعد ، وما أن تقدم الضحى حتى كانت الاستعدادات قد استكملت مراحلها ، وأخذ أهل القرية يتجمعون حول المعسكر ، وأخذت طوائف من الزنوج تبرز من وراء ألفاف الغابات وتنحدر من خلف التلال المجاورة فى طريقها إلى المعسكر المصرى ؛ يتقدمهم شيوخ القبائل وقد تدثروا بالمآزر الحمراء الجميلة ، وتمنطقوا بالسيوف التى قدمها قائد الحملة المصرية هدية من أمير مصر الخديو إسماعيل .

ولما كانت الساعة العاشرة نفخ فى الأبواق ، واصطفت الجنود المصرية مرتدين الملابس البيضاء ، وقد تدلت على أكتافهم الكوفيات المزركشة ، وساروا صفوفا متراصة تتقدمهم موسيقاهم إلى حيث الساحة الوسطى ، حيث وقفوا على شكل مربع ممتد الأضلاع مستقبلين الصارية الكبرى . عند

ذلك تقدم ضباط الحملة على ظهور جيادهم المطهمة حتى إذا كانوا تحت الصارية ترجل القائمام عبد القادر حلمى بك ورفع العلم المصرى ؛ فانطلقت فى تلك اللحظة مدافع الميدان تحية وإجلالا للعلم المرفرف .

فلما صمتت فوهات المدافع ، وقف عبد القادر بك تحف به هيئة كبار ضباط الحملة ، وقرأ على الجموع المحتشدة الإعلان الرسمى الذى قرر فيه امتداد الحدود المصرية إلى هذه البقعة من وادى النيل ؛ فالنيل من مصبه إلى منبعه بلد واحد وإن اختلفت أجناسه ؛ كما أعلن إطلاق إسم «الاسماعيلية» على هذا المكان تيمنا باسم خديو مصر ، وجعلها عاصمة لمديرية خط الاستواء الجديدة .

وما أن انتهت مراسيم الاحتفال العسكرى حتى تقدم رؤساء القبائل والعشائر رافعين واجب الولاء والطاعة إلى ممثلى الحكومة المصرية فوزعت عليهم الهدايا ونحرت الأبقار وأقيمت الولائم ، وكان الفرح شاملا شائعا فى وجوه الأهلين الذين رأوا فى العلم المصرى رمزاً لاستتباب الأمن والطمأنينة وللقضاء على النخاسة والاسترقاق ، وحماية لهم من جبروت شيوخهم الذين كانوا يسومونهم الخسف والهوان ، فأصبحوا يفخرون بأنهم من رعايا مصر لهم ما لغيرهم من حقوق ، وأى نعمة أبلغ من نعمة الحرية !

بقيت الحملة المصرية فى « الاسماعيلية » زهاء تسعة أشهر ، نظمت فى خلالها البلاد ودرب الزنوج على الزراعة وعلى مبادىء الصناعات ، واستخدمتهم الحكومة

فى أعمالها بأجور طيبة ، بعد أن كانوا يدخلون قسراً فى خدمة تجار النخاسة .

وفى يوم ٢٤ يناير عام ١٨٧٢ تركت الحملة الاسماعيلية تنفيذاً للتعليمات التى وردت إليها من وزارة الحربيـة بالقاهرة ، والتى جاء فيها تعيين القائم مقام رؤوف بك حاكما لهذه المديرية ، وهو من الضباط المصريين المشهورين بالحزم والإقدام والشجاعة .

سار الأسطول المصرى وقبلته منابع النيل العليا ، وليس لرجاله من غاية إلا أن يعقدوا أواصر الصداقة بين طرفى الوادى ؛ فكل من شرب من ماء هذا النهر المبارك الروحات والغدوات ، فهو ربيب النيل ، وكل من عاش على ضفافه فهو أخ وصفى ، وليس بسيد ومسود . .

سار الأسطول المصرى تتقدمه مركبان بخاريتان كانتا أول باخرتين تشقان لجج النيل الأعلى ، فكانتا أعجوبة الأعاجيب ؛ أينما سارتا تجمع المتفرجون على الشاطئين فاغرى الأفواه من الدهشة والعجب ، حتى إذا تردد الصفير فى الفضاء تراهم كالحيوانات البرية وقد فزعوا إلى الغابات . .

كانت أخبار الحملة قد سبقتها ، وكانت إذا ما نزل رجالها فى نقطة على ضفاف النهر ، أقبل عليهم شيوخ القبائل مرحبين بعد أن وثقوا من أن هذه الحملة ليست كالحملات التى ينظمها تجار الرقيق لاصطياد الزنوج ، ولا تجار العاج للاختلاس والسطو .

وعند ما وصلت الحملة إلى نيل فكتوريا أنشأت حصونا للحامية المصرية عند قرية (فويره) إلى جوار أحد الشلالات العظمى ؛ إذ تبين لعبد القادر بك أن ملك «أونيورو» قد بلغته أخبار الحملة المصرية ، وانه سمع كيف أن جميع القبائل قد دانت لها دون قتال ، فكان ذلك سببا فى حقده على رجالها وعزمه على الإيقاع بها حماية لسلطانه بين القبائل الذى زعزعه هؤلاء الغرباء .

وعادت فى المساء الرسل إلى المعسكر المصرى تنبىء بأن الملك « كابريقه » قد أرسل يجمع جموعه عند « ماسندى » بعد أن أشاع أن هذه الحملة من أولاد العرب والترك ليس لها غاية سوى اصطياد الرقيق وجمع الأبقار والأغنام وإحراق القرى ، ففعلت هذه الأكاذيب فعلها فى نفوسهم . وذكر الكشافة أن بعض رجال « كابريقه » قد تجمعوا فى بعض الغابات الكثيفة القريبة من الشلال وأنهم لا شك قد بيتوا العزم على مهاجمة الحامية المصرية ؛ مع أن الهدف الذى كانت تسعى إليه هذه الحملة ليس الاستعمار أو الاسترقاق بل بسط أروقة الحضارة على هذه الأنحاء من وادى النيل ، التى ما زالت تعيش إذ ذاك فى غياهب البربرية ، والتى كادت تصبح فريسة للأوربيين الذين بدأوا يوجهون وجوههم إلى أفريقيا للفتح والاستعمار . . كانت هذه سياسة مصر .

لم يتفتح صبح ذلك اليوم حتى كانت الاستحكامات التى شيدها رجال الحملة قد تمت ؛ كانت أشبه شىء بزرائب مسورة بجزوع الأشجار والأغصان والأشواك ،

إذ ليس فى هذه الأدغال الملتفة التى لا تنقطع عنها الأمطار والسيول الجارفة من وسائل للتحصين سوى ما ينبت فى هـــذه الأدغال من أشجار النبق والموز وغيرها .

كان دوى الشـلالات يصم الآذان حتى كان الجنود لا يتكلمون إلا بالأشارة إذ غـدت الأصوات فاترة غير مسموعة ؛ وكان الـكشافة يحملون أبواقهم ، مستعدين لإنذار رجال الحملة إذا ما أحسوا بهجـوم الزنوج . ولم يكن الصراع بين هؤلاء وهؤلاء فقط ، بل كانت الطبيعة نفسها عدواً عنيداً ؛ إذ أن الأسوار الطينية التى بنتها الفرقة كمخازن للذخيرة سرعان ما اكتسحتها السيول . وكانت العيون متيقظة لهجوم قطعان الفيلة التى تسلك هذا الطريق إلى النهر ؛ وكان السير على شاطىء النيل تـكتنفه أخطار التماسيح الراقدة ، التى لا تـكاد تميزها العين ، والتى تراها جامدة فى مكانها لا تتحرك ساعات طويلة بل أياما بأسرها حتى تحسبها العين ميتة ، حتى إذا اقترب منها أحد من الناس فتحت عيونها الصغيرة التى كانت نصف مغمضة واندفعت كالريح ، وأطبقت على أقدام فريستها وجرتها وراءها إلى الماء فى لمحة بصر . .

لم ينتصف النهار حتى سمعت دقات الطبول ترتفع من صميم الغـابة ، وكلما اقترب الدوى كلما اختلط بأصوات المهاجمين الذين كانوا يزومون كما تزوم الجمال ويصرخون من وقت لآخر صرخات مدوية استدراراً للحماس ؛ فما كان

من رجال الحملة إلا أن اعتصموا وراء الأسوار وامتنعوا عن البدء بالعدوان ، فاما أصبح المهاجمون على مقربة من السور أطلقوا نبالهم وسهامهم السامة فامتلأ بها الجو ، فكانت تنفذ خلال الحواجز الشوكية وتنغرس فى الرمل أو تنكسر على جذوع الأشجار التى احتمى خلفها أكثر الجنود الذين يعرفون خطرها ، إذ أن سهماً منها إذا أصاب رجلا فى أصبعه عرضه للهلاك المحقق إذا لم يبادر أطباء الحملة بعلاجه على الفور قبل أن يتسرب السم إلى جسمه . .

ولعل المهاجمين قد غرهم سكون الحامية لأنهم أخذوا يندفعون نحو الحواجز ، فاما كانوا على مدى بضعة أمتار أطلقت عليهم النيران من مئات بنادق «رامنتون» فحصدتهم حصداً ، عند ذلك دب الفزع فيهم وعم الذعر بينهم فرموا نبالهم وولوا هاربين ؛ ولكنهم ما اختفوا فى الغابة حتى برزوا من جديد ، وكأنهم قد استعادوا رشدهم بعد تلك المفاجأة ، ولكن هجومهم الجديد لم يكن أكثر نجاحا لأنهم تقهقروا مرة أخرى واختفوا فى الغابة . .

كان عبد القادر بك عارفاً بأساليب القتال بين هؤلاء الزنوج وهو فوق ذلك يعرف أن الملك « كابريقه » لا يثنى عزمه هذا الفشل ، لأن سلطانه سوف يتزعزع إذا رفرف العلم المصرى فوق أقليم (أونيورو) الذى يحكمه ؛ فقتال المصريين فى نظره دفاع عن ملكه وسلطانه ، لا سيما أن أخبار الحملة قد سبقتها إلى تلك الأصقاع بما كان يتناقله الزنوج عن انتشار الأمن والحرية

والعدالة فى الأقاليم التى فتحتها الحملة جنوب الخرطوم ، مما لم تعهده هذه البلاد من زعمائها وشيوخها الذين يحكمون القبائل حكما فرديا ، ويعتبرون أملاكهم وأغنامهم بل ونساءهم ملكا لزعيم القبيلة .

حتى إذا جن الليل ، ولم يكن يلمع فى الفضاء إلا أضواء المصابيح التى تنير دروب المعسكر المصرى ، ومواقد الحطب الكبرى التى تشعل عند أطرافه لمنع تسرب الوحوش الكاسرة إلى قلب المعسكر ؛ إذا بغمغمة كهزيم الرعد البعيد ترتفع مرة أخرى من جانب الغابة ، وكان ذلك إنذاراً بهجوم ليلى عنيف ، فتسرب الجنود فى هدوء إلى مواقفهم وظلوا صامتين يحاولون اختراق حجب الظلام بأعينهم . ولم يمض طويل من الوقت حتى برزت جموع غفيرة كأنها قطع الليل أخذت تقترب من المعسكر المصرى وهى لا تكاد تحدث صوتاً ولا تدق طبلا أو توقد مشعلا يهديها طريقها . . .

ولما اقتربت هذه الجموع من أسوار المعسكر المصرى دوى فى الفضاء دق طبل عظيم وتبعه صياح من آلاف الحناجر ، وبدا على إثره لمعان مئات من المشاعل التى أضاءت المكان فبدت هذه الآلاف من الزنوج ما بين رجال ونساء وأطفال وكأنهم قبيلة كبرى هجرت بلادها وسارت ضاربة فى الأرض ؛ جاءت هذه الجموع الحاشدة لا للقتال فحسب بل لإحراق المعسكر المصرى ؛ جاءت بنسائها وأطفالها لأن « كابريقه » أنذر شيوخهم بالتقتيل والسبى

والتشريد إذا لم يتعاونوا على رد هؤلاء الدخلاء من بلادهم . .

وما هى إلا لحظة حتى انطلقت الأقواس تحمل السهام المحرقة واندفعت النساء بأيديها النيران تلقيها على الحواجز الخشبية ، ولا شك فى أن الفاجعة كانت مروعـــة لولا رطوبة فروع الأشجار التى سور بها المعسكر ، ولولا هطول الأمطار فوق مخازن الذخيرة التى كانت عرضة للاشتعال إذا ما سقطت عليها بعض هذه السهام المحرقة غفلة . . .

وفى ضوء هذه النيران المشتعلة أحكم الجنود تسديد بنادقهم ؛ ففعلت فعلها الذريع إذ لم تمض عشر دقائق حتى بدا القلق ينتشر بين صفوف المهاجمين واستحال القلق إلى تقاعد وانتهى إلى هرب وفرار ، تاركين وراءهم مئات من القتلى والجرحى ومخلفين مئات من النساء والأطفال الحيارى . .

كان هـــذا الفشل الذى منيت به القبيلة سببا لاستسلامها ، إذ وفد فى اليوم الثانى على المعسكر المصرى بعض رؤوس العشيرة يطلبون الأمان . فقطعوا المواثيق على أنفسهم وحلفوا بآلهتهم « الكجور » أن يكونوا خاضعين لسلطة الحكومة المصرية ؛ فلما أمنهم عبد القادر بك انحنوا قليلا وأمسك كل واحـد منهم بحفنة من التراب ، ودسها فى فمه علامة على خضوعه وصدق نيته . .

فلما أطلقت البنادق ابتهاجا بعودة السلام والامان أقبل عـدد عديد من

أهل القبيلة إلى مكان الموقعة لحمل القتلى والعناية بالجرحى ، وقد زودتهم الحامية المصرية بالأدوية والأطعمة والملابس ووزعت عليهم الهدايا من الزجاج والخرز والعقود فكان لذلك وقع كبير فى نفوسهم .

كانت رسل الملك كابريقه ، فى طريقها تسابق الريح إلى (ماسندى) تحمل إلى الملك أخبار هذه الهزائم وانضمام قبائله تحت لواء السلطة المصرية ؛ ولما سمع بأساليب القتال الفتاكة التى تستعملها القوات المصرية ، ولما سمع بأن تسليم هذه القبائل لم تعقبه مجازر للانتقام كما هو شائع بين الشعوب الافريقيـة قر قراره على التسليم ولو إلى حين . . . وما أسرع أن بعث بخمسة من رسله للقاء رجال الحملة التى بدأت طلائعها تتقدم صوب (ماسندى) نفسها عاصمة « الأونيورو » .

ففى السابع من شهر أبريل عام ١٨٧٢ دخلت القوات المصرية ماسندى عاصمة مملكة أونيورو ، ولم تكد تتوسط الساحة الوسطى للقرية حتى كان « كابريقه » فى انتظارها ، وقد توسط جمعا من رجاله من حملة الرماح التى زينت رؤوسها بالأغصان الخضراء دليلا على السلام والأمان .

وإلى جانب دار الملك ـ وهى كوخ كبيرة من الطين مسقفة بسيقان الغاب والموز المجدولة ـ بنت الحامية داراً للحكومة المصرية كما شيدت حصنا لتأمين رجالها ؛ ولم يتدخل المصريون فى شئون الأهلين إلا إذا كان ذلك للقضاء

على أعمال السخرة والاسترقاق والتعذيب حتى رفرف على هذا الشعب الأفريق لواء الطمأنينة والسلام .

نعم لقد جاء المصريون إلى هذه الأصقاع البعيدة لمد رواق الحضارة التى تفيض بها تعاليم الإسلام السمحة ، فالتسامح والحرية فى البيع والشراء وإشاعة السلام وتدعيم أواصر الإخوة بين الناس دون تفريق بين الأجناس كل هذا كان شعار المصريين بين الشعوب الافريقية المتبربرة ، والتى رأت فى هذه الشرائع بصيصا من الأمل فرحبوا بها واحتموا بلوائها فاعتنق الكثير منهم الإسلام على يد أئمة الحملة .

كان الملك كابريقه يبيت العزم على القضاء على الحملة المصرية التى سلبته هيبته وسلطانه بما اعترفت به من حقوق لكل فرد من أفراد الشعب ، بعد أن كان الملك هو الحاكم المطلق الذى يملك كل شىء من أرواح أهله أو غلة أرضه دون أن يسأله أحد عما يفعل .

لم يكن عبد القادر بك ليغيب عنه هذا الحذر الذى كان يبديه « كابريقه » ، ولكن لم يرد أن يبدأ بالعدوان وفضل سياسة الانتظار ، حتى أصبح هذا هذا الظن يقينا بسبب احتكار الملك للملح ...

كان الملح أكبر داعية للملك « كابريقه » بين الشعوب الافريقية ، وسببا لانتشار نفوذه بين شيوخه وأمرائه ، لقد أكسبه هيبة وقوة ما كان ليفعلها

جيش عرمرم ؛ نعم كان الملح معبوداً بين القبائل الأفريقية ، وكان « كابريقه » يحمل هذا المعبود فى كفه . .

كان من عجائب هذه البلاد التى تكثر فيها البحيرات والأنهار والجبال أن الملح الذى لا يستغنى عنه أحد فى طعامه لا يوجد إلا فى بحيرة (البرت) التى تعيش على ضفافها قبائل مملكة (أونيورو) ، فكانوا يجففون الملح من ماء البحيرة فى أحواض طينية صغيرة فيبدو فى شكل التراب ثم يجمعونه فى أجربة مصنوعة من لحاء أشجار الموز ؛ عند ذلك يستولى عليه « كابريقه » ويستخدمه فى تجارته مع أهل مملكة أوغندا القريبة وبلاد الكونغو وقبائل النيل الأعلى حيث ينعدم الملح من جميع هذه الأصقاع ، حتى ان ماء النيل إذا ما خرج من بحيرة « البرت » نفسها يصبح عذبا سائغا ويخلف الملح وراءه فى جوف البحيرة . .

علم عبد القادر بك أن الملك « كابريقه » أرسل هدايا كثيرة من الملح إلى شيوخ القبائل القريبة ، وتيقن من أنه يجمع الأتباع والأنصار لمهاجمة الحامية المصرية ، حتى إذا جاءته فى ذات مساء فتاة تحمل هدية من (النبق) أسرت إلى الترجمان بأن سيدها « ريونجا » قريب الملك قد أرسلها لينذر رجال الحامية بما عزم عليه « كابريقه » من نقض عهده ، وذلك بأن يشعل النار فى دار الحكومة وفى زرائب المعسكر المصرى ، ويتبع ذلك بهجوم ليلى مفاجئ ، وهكذا فشلت خطة

« كابريقه » الغادرة وهزم شر هزيمة ، ولم ينج من الأسر إلا بأعجوبة .

وفى حفلة باهرة أقيم « ريونجا » ملكا على «أونيورو» فاصطفت فرقة من رجال الحملة المصرية ونصب العلم المصرى على صارية عالية ، فلما قدم «ريونجا» صافحه كبار الضباط باسم الحكومة المصرية ثم أقسم يمين الإخلاص والولاء للخديو الذى وضع مملكة (الأونيورو) تحت حمايته . .

شاعت أخبار هزيمة « كابريقه » ، وتنصيب (ريونجا) ملكا على بلاد أونيورو ، واستتباب الأمن فى تلك الأصقاع ، وانتشار لواء الحضارة والعمران بما تنفقه الحملة المصرية من أموال باهظة بلغت نحو مليون من الجنيهات لتشجيع الزراعة وإقامة الأسواق العامة لتبادل التجارة بين الأهلين والقضاء على تجارة الرقيق والسخرة ، مع رعاية لتقاليد هذه الشعوب واحترامها وتقديم الهدايا لشيوخها . .

شاعت هذه الأخبار حتى وصلت إلى مملكة أوغندا ، وبلغت مسامع الملك « أمتيسا » أعظم أمراء هذه المقاطعات الاستوائية ، فرأى من الحكمة وأصالة الرأى أن يصانع الحملة المصرية ، حتى إذا وثق من إخلاصها انضم إلى لوائها ، فبذلك يقوى ساعده ويحمى ظهره من دسائس الأوربيين الذين كانوا يفدون على بلاده عن طريق الزنجبار .

أسرع « أمتيسا » وأرسل وفداً من رجاله إلى (ماسندى) حيث دار

الحكومة المصرية وعرضوا إخلاص مليكهم لخديو مصر ، كما قدموا الهدايا من العاج والريش والجلود وأنواع الفاكهة إلى رؤساء الحملة ، الذين أكرموا مقدمهم وأوفدوا معهم بعثة برياسة القائم مقام عبد العزيز بك ، محملين بأنواع الهدايا الفاخرة من الثياب الحريرية والعمائم المزركشة والسيوف ، ومن الحلى والمصوغات الزجاجية . فبذلك توطدت العلائق بين مصر وبين جميع الشعوب التى تعيش على ضفاف النهر من مصبه إلى منبعه ، بغير حد السيف واستخدام القوة الغشوم، لأنه لم يكن لمصر من أهداف سوى أن ترفرف أجنحة السلام وألوية الحضارة على أنحاء الوادى لا فرق بين مصره وسودانه ، لما تنطوى عليه هذه الوحدة من تكاتف القوى ضد الاستعمار الأوربى الذى بدأت رسله تجوس خلال أفريقيا الوسطى لتوقع شعوبه فى حباله .

مضى عامان والعلم المصرى يخفق من البحر الأبيض إلى خط الاستواء ، ونشطت فى هذه الفترة التجارة بين أطراف الوادى ، فكانت مخازن الحكومة على شواطىء البحيرات وعلى ضفاف بحر الجبل وبحر الزراف والغزال مكدسة بالعاج والصمغ والريش التى كان يجلبها الأهلون أنفسهم للبيع أو المقايضة ؛ واستقر الأمن فى تلك الأصقاع بما أنشأته الحكومة من مراكز عسكرية فى أكثر أنحائه للقضاء على تجارة الرقيق البغيضة ، وارتفع مستوى المعيشة بين قبائل الزنوج بسبب منع السخرة وتطوع الكثيرين من أبناء هذه البلاد فى صفوف القوات المصرية . .

وصلت القافلة النيلية وألقت مراسيها عند « غوندكرو » ، وهى التى أصبحت تدعى « الاسماعيلية » كما رأينا ، جاءت محملة بالأقوات والمهام العسكرية والبريد الشهرى إلى المعسكر المصرى . ولما كان اليوم التالى عاد رؤوف بك من رحلته التفتيشية فوجد خطابا من سعادة إسماعيل أيوب باشا حاكم عام السودان ينبئه فيه بتعيين ضابط إنجليزى يدعى « غردون » مأموراً لمديرية خط الاستواء ، وأنه يطلب منه أن يرحب به وأن يقدم له كل مساعدة عند ما يمر به فى طريقه إلى منطقة البحيرات .

لقد أثارت هـذه الرسالة عجب رؤوف بك ودهشته ، إذ أن تعيين ضابط إنجليزى فى مثل هذه الوظيفة خطر وأى خطر على السيادة المصرية فى السودان الأعلى ، ومامن شك فى أن هذا التعيين قد دس على الخديو دساً ، وأن أصبع الاستعمار الانجليزى لا بد وأنها كانت السبب فى اختيـاره . تذكر رؤوف بك ذلك التقرير الذى أرسله منذ عامين جعفر مظهر باشا حاكم السودان السابق والذى يؤكد فيه أن وجود الانجليز وصنائعهم من الأوربيين فى المناطق الاستوائية خطر على السيادة المصرية ، سواء فى ذلك الانجليز الذين يعملون فى خدمة الجيش المصرى كالسير صمويل بيكر أو الذين يفدون على هذه البلاد فى هيئة مبشرين أو رحالة أو تجار .

لم ينتظر رؤوف بك طويلا إذ أن الحملة المصرية برئاسـة الـكولونيل غردون قد وصلت إلى الاسماعيلية فقابلها الحاكم المصرى بالاحترام والحفاوة اللائقة . وما هى إلا بضعة أيام حتى تحققت فراسة رؤوف بك إذ أن غردون

قد بيت العزم على إضعاف السلطة المصرية فى تلك البلاد ؛ فأصدر أمراً بصفته مديراً لخط الاستواء بسفر رؤوف بك فى الحال إلى الخرطوم وتخفيض عدد رجال الحامية المصرية هناك إلى خمسين رجل فقط . وفى الوقت نفسه جمع شيوخ العشائر وقدم لهم الهدايا من الأثواب الحمراء والسيوف «والخمور» والودع والخرز لكى يحببهم فى شخصه ، وبث بينهم أعوانه للتفريق بينهم ولتبغيضهم فى حكم المصريين.

وهكذا بدأت فترة اضطراب وتقلقل فى تلك البلاد التى سادها السلام والوئام خلال تلك الأعوام ، إذ لم تمض أيام على سفر الحملة المصرية الجديدة حتى بدأ العبيد يشنون غاراتهم على المعسكر المصرى فبذلك نجح غردون فى زلزلة الحكم المصرى والاستهانة بكرامته .

سارت الحملة المصرية الجديدة تشق عباب مياه بحر الجبل حتى وصلت بواخرها إلى « مقانقو » عند مدخل بحيرة البيرت فكان منظرها رائعاً ، وكان صفيرها وهديرها يتردد فى الفضاء الذى لم يألف إلا هدير مياه الشلالات ، وزئير الأسود وصفير الطيور البرية . فلما وصلت الحملة إلى جبل (مقى) وعسكرت بجوار الشلال ، وما أن أرخى الليل سدوله حتى نزلت جماعات من العبيد وحاولت أن تلقى النيران لإحراق المعسكر ، فاختار غردون لقتالهم القائمقام عبد العزيز على رأس ستة بلوكات من العساكر مسلحة بالبنادق والسوارخ .

فلما اجتازت الفرقة النهر إلى البر الشرقى أحاطت بالجبل وأخذت فى مطاردة العبيد ، وما هى إلا نصف ساعة حتى شتت شملهم ، ولكن حدث فى

تلك اللحظة أن صاح أحد العساكر بأن الذخيرة قد فرغت ، لأن غردون لم يسمح لكل جندى إلا ببضع طلقات . فاما سمع ذلك أحد الزنوج من التراجمة تسلل من المعسكر المصرى وأطلع إخوانه من سكان الجبل على هذا السر ، عند ذلك تجمعت جموع الزنوج وأحاطوا بالفرقة المصرية من كل جانب وراحوا يقذفونها بالنبال والنشاب السامة ، ورجال الفرقة لا حول لهم ولا قوة بعد أن أصبحوا عزلا من كل سلاح وليس لهم من سبيل للدفاع إلا الهرب والنجاة بأنفسهم ، وهكذا وقع هؤلاء الجنود ضحية العذر والخيانة فمات منهم من مات بفعل السهام المسمومة ؛ أما من بقى حيا فقد أوثقوا بالحبال وسحبوا على الأرض إلى رأس الجبل ؛ وهناك أوقدت النيران وألقى فيها بهؤلاء المصريين فماتوا احتراقا فى سبيل وطنهم . أما عبد العزيز بك فقد عقد وثاقه حول جذع شجرة ، وأمر شيخ القبيلة بجمع الصغار والفتيان الذين يتعلمون رمى النشاب وجعلوا من جسم هذا الجندى الباسل هدفا لسهامهم ، وهكذا بقى مصلوبا ثمانية أيام حتى بلغ ماغرس فيه من السهام خمسمائة نشابة .

وفى اليوم الثانى وصلت أخبار هذه الفاجعة إلى المعسكر المصرى فهاجت الجنود وثار الضباط ، فلم يجد غردون مندوحة من إنفاذ حملة قوية لتأديب هؤلاء الثائرين وللانتقام لأولئك الأبطال الذين راحوا ضحية غدره بهم ، فأحاطوا بالجبل من كل جانب حتى وصلوا إلى قمته ، وهنالك وجدوا عبد العزيز بك مصلوبا فى مكانه كما وجدوا عشرات من جثث القتلى محروقة بالنار .

كانت أخبار الحملة المصرية الجديدة وعلى رأسها غردون تصل إلى الملك « أمتيسا » أمير أوغندا ، وقد راجت الإشاعات بأن لهذا القائد الإنجليزى غايات مستترة فلم يكن مخلصا الاخلاص كله للحكومة المصرية .

كان « مفتاح » شابا من أهل أوغندا هرب إلى زنجبار وهنالك تعلم اللغة العربية لغة تلك البلاد ، وعرف اللغة الإنجليزية من بعض السياح والتجار الذين حملوه معهم إلى أوغندا فأصبح من ذلك التاريخ ترجمانا للملك « أمتيسا » . وفى تلك الأثناء كانت الحملة المصرية قد وصلت إلى « مارولى » ، فأرسل غردون خطابا شديد اللهجة إلى أمتيسا يتهدده فيه ويتوعده ، فتعجب الملك لذلك أشد العجب لأنه يعتبر نفسه صديقا للمصريين وتحت حماية الخديو ، وقد أصبح سلطانه بسبب ولائه هذا نافذاً على جميع بلاد البحيرات .

كان «مفتاح» يعرف سر هذه السياسة بفضل معرفته للغة الانجليزية واتصاله بالمبشرين الذين وفدوا إلى بلاد الملك أمتيسا من الشرق فى الوقت الذى وفدت فيه الحملة المصرية من الشمال ، ولم يكن ذلك من وحى الصدفة بل كان سياسة مبيتة. لهذا أشار « مفتاح » على مليكه بكتابة رسالة لطيفة إلى غردون يؤكد فيها صداقته وولاءه للخديو ويدعو فيها الحامية المصرية للاستقرار فى «دوباجا» عاصمة أوغندا .

لما وصلت هذه الرسالة إلى غردون بدا عليه الأسف ، وكان فى تلك الليلة قد عقد مجلسا خاصا لم يحضره أحد من الضباط المصريين ، وكان يزعم بأنه يحتفى ببعض أصدقائه من الرحالة ، وكان من بينهم إيطالى يدعى « جسى »

وألمانى يدعى «شنيتسر» ، وآخر يدعى «يونكر» وبعض القسس الإنجليز . أسف غردون لما أبداه «أمتيسا» من مظاهر الولاء للخديو وكان يريد أن يوقع بينه وبين المصريين حتى تنشب الحرب بينهما ويستحكم العداء ، لهذا رأى أن يتظاهر أمام الملك بالفرح فأرسل له العربة الفاخرة التى بعث بها الخديو إسماعيل هدية منه إلى الملك أمتيسا ، ولكنه أوعز لهؤلاء الأجانب بأن يذكروا أمام الملك أن غردون لا ينشد إلا خير أوغندا ولا يبغى إلا استقلالها ، كما أوعز للمبشرين بالتقرب إلى الملك وأن يدعونه إلى اعتناق الدين المسيحى ، فأحضروا له صليبا كبيراً مصنوعا من النحاس المطلى بالذهب والمزخرف بفصوص من الزجاج الملون ، كما قدموا له هدايا من تماثيل القديسين الصغيرة وزعموا للملك أن حمل هذه العلامات هى كل ما يتطلب من الرجل المسيحى فضلا عن أنها أشد فعلا من حمل التعاويذ التى يعدها الساحر للملك لحمايته من غدر أعدائه .

كان يجرى كل هذا خفية عن عيون الضباط المصريين ، وكان غردون لا يستخدم فى هذا الشأن إلا أعوانه من الأجانب المستترين فى زى الرحالة أو التجار ، ثم رأى غردون ذراً للعيون أن ينفذ بعثة مصرية إلى الملك امتيسا تحمل العربة الفاخرة ، وأرسل معها كتابا إلى الملك يدعوه فيه إلى الإسلام حمله إمامان من أئمة الحملة هما الشيخ عبد اللطيف الحلفاوى وإسماعيل الأصوانى لتلقينه مبادئ الدين الحنيف ، إذ أبدى الملك رغبته فى معرفة أصوله نظراً لانتشاره بين أهل أوغندا على يد العرب النازحين من الزنجبار .

سارت هذه البعثة جنوبا تتقدمها كتيبة شرف على رأسها اليوزباشى محمد ابراهيم افندى ، حتى إذا كانت فى منتصف الطريق قابلتها رسل الملك أمتيسا وكان رئيسهم يحمل مائة فأس ومائة سهم ؛ فلما اقتربت البعثة تقدم رئيسهم وقدم للضابط المصرى سهما وفأسا ، وطلب منه على لسان الملك أن يختار أحدها ، أما السهم فيرمز للحرب أما الفأس فلدوام السلام وعلى ذلك جرت عادتهم ، فتناول اليوزباشى « محمد ابراهيم » الفأس وألقى بالسهم على الأرض ، عند ذلك علا هتاف الأهالى وتهليلهم ودقوا الطبول ونفخوا فى الأبواق ابتهاجا وفرحا .

ثم تابعت البعثة سيرها حتى مقر الملك أمتيسا ؛ وفى ظاهر القرية قابلهم جماعة من خاصة الملك بينهم «مفتاح» ، الذى أوضح للضابط المصرى ما كان يجرى وراء ظهور المصريين من مناورات ودسائس يحيكها لهم غردون وبطانته من الأوربيين وذلك ليبث روح النفور بين الخديو وبين أهل أوغندا ، ولكى يظهر رجال الحملة المصرية بمظهر المستعمرين الذين لا هم لهم إلا جمع خيرات البلاد واسترقاق أهلها . . .

ولما كانت الظهيرة دخلت البعثة المصرية القرية فى نظامهم البديع وزيهم الأبيض الجميل وقد انطلقت العربة تحمل هدايا الخديو إلى أمتيسا ، من ثياب وعطور وحلى وخناجر مرصعة ، وكان « أمتيسا » جالسا فى ديوانه وهو كوخ رحب طوله ثلاثون متراً مشيد بالطين والبوص ، وكان يلبس شبه قفطان من الحرير الهندى وعمامة مزركشة كعمائم أهل مكة وينتعل مداسا من الجلد

الأحمر مما يحمله إليه التجار العرب ، وقد مد رجله اليسرى أمامه دلالة على مركزه السامى ، ووقفت حوله بطانته من حاملى الطبول والأبواق ، وإلى يساره وقف مفتاح ترجمانه، أما وزيره فوقف على باب القاعة ينتظر قدوم الوافدين .

فلما اقتربت البعثة خرج أمتيسا ووقف على عتبة الكوخ وقد علاه العجب من رؤية الكتيبة المصرية بهندامها البديع وبنادقها المتدلية من أكتافها وبهرت عينه العربة وما عليها من هدايا ، فلما نزل رئيس البعثة وسلم على أمتيسا وأطلقت الجنود النار فى الهواء ابتهاجا ، سرت رعدة بين الجموع المحتشدة إذ ظنت أن إطلاق النار دسيسة مبيتة فحاولوا الهرب وامتشاق الأقواس والحراب للدفاع عن أنفسهم . . .

وفى المساء ابتهج أمتيسا بقدوم البعثة المصرية فأقام مهرجانا راقصا فى الساحة الوسطى للقرية ، ووزعت زجاجات «الخمور» التى أرسلها غردون هدية شخصية منه إلى الملك ، فكان من أثرها أن كاد ينقلب ذلك الحفل الوديع إلى ثورة عاصفة جامحة ، وأخذ أمتيسا يهذى فيقهقه تارة ويهدد من حوله أخرى ، إذ ظن أن روحا شريرة قد تملكته ، فأمر بقتل ثلاثة من الصبيان قربانا لهذه الأرواح الشريرة لتنطلق عنه ، وكادت تحدث هذه المجزرة لولا تدخل رئيس البعثة المصرية . . .

لقد كان أمتيسا فخوراً بولائه لخديو مصر معتزاً بصداقته وهو ذلك الذى كما يقول: الملك الثامن عشر من أسرته المالكة ، التى إذا مات أحد أفرادها

تقمصت روحه فى جسد أسد . فلما مات أبوه كفن فى جلد ثور وألقى فى البحيرة ثلاثة أيام سويا حتى خرجت منه كما يقولون ثلاث دودات ، عند ذلك انتشل من الماء ودفن ، ولولا ذلك لأصبح الملك العجوز أسداً ضاريا فتاكا . . .

كانت مثل هذه الحكايات وأشباهها مادة السمر بين أمتيسا وضيوفه وكان «مفتاح» تارة وبعض ضابط البعثة من السودانيين يقوم بالترجمة والشرح، وكان عجب أمتيسا عظيما عند ما علم أن غردون مسيحى وأنه هو الذى أرسل الشيخين لتعليمه مبادئ الإسلام بينما أوفد من قبل ثلاثة من المبشرين لتلقينه الدين المسيحى وهم الذين حملوا إليه هدايا الخمور . . .

ولكن « أمتيسا » لم يكن الغر الغبى الذى يقنع بظواهر الأشياء دون أن يتامس أسبابها ودوافعها ؛ فلم يفته ما أبداه غردون من رغبته فى أن يرى أوغندا بلداً مستقلا بنفسه دون حاجة إلى رعاية الخديو وحمايته ، فقد رأى فى هذه النصيحة ما جعله يتشكك فى نوايا غردون ، إذ أنه بذلك يترك نفسه فريسة لأطماع أولئك البيض الذين أخذوا ينتشرون كالجراد من الشاطئ الشرقى .

لم يقع أمتيسا فى الشبكة التى حاكها له غردون بل أرسل كتابا إليه بصفته مديراً لمديرية خط الاستواء المصرية يشكر فيه الخديو على هداياه ونواياه ويؤكد له إخلاصه وولاءه لمصر ، ويطلب فيه إرسال حامية مصرية لتعسكر فى « دوباجا » .

فلما وصل هذا الخطاب إلى غردون غضب غضبا شديدا ، ولكنه أبدى

للرسول ابتهاجه لولاء أمتيسا للخديو ، إذ كان غردون ممثلا بارعا لا تضيق جعبة حيله . ولما كانت رغبة أمتيسا معروفة بين الضباط المصريين ؛ لم يجد غردون مندوحة من إرسال مائة وخمسين جنديا ليعسكروا فى عاصمة أمتيسا ، فلما وصلوا إليها أكرم أمتيسا وفادتهم واعتز بوجودهم واعتبرهم وقاء لأوغندا من تدخل الاستعمار الأوربى . . .

ولكن هذا لم يستمر طويلا إذ أن غردون أرسل سرا إلى الخديو يخبره فيه بفتح أوغندا ولكنه حذر الحكومة المصرية من الاغترار بولاء أمتيسا ، لهذا فهو يقترح انسحاب الحملة المصرية بأسرها من أوغندا ومن الأونيورو خوفا على رجالها من غدر أولئك السود ، فضلا عن الاقتصاد فى النفقات الباهظة التى تتكلفها الحملة والتى بلغت مليونا من الجنيهات .

وهكذا كان ، فانسحبت الحملة المصرية من أوغندا .

ولكنه لم يمض عامان حتى كانت هناك حملة انجليزية تغزو أوغندا من الشرق ؛ وما أسرع أن دخل « أمتيسا » فى صراع عنيف مع الاستعمار الإنجليزى .

وفى عام ١٨٨٤ مات أمتيسا وتولى ابنه موانجا .

ولم يمض عام ١٨٩٥ حتى أعلنت انجلترا « حمايتها » على أوغندا .

وبعد عامين قبضت انجلترا الغادرة على الملك «موانجا» بن أمتيسا العظيم ونفته إلى جزائر سيشل !

غدر وخيانة

بينما كان المجلس العسكرى منعقداً ، دخل أحد الجنود و بيده رسالة برقية قدمها إلى أحمد عرابى باشا قائد القوات المصرية . ولم تحو البرقية إلا سطراً واحداً ، ومع ذلك فقد كانت لها أهمية خاصة حتى أن موضوعها أصبح محورا للمناقشة ومثارا للجدل بين أعضاء المجلس .

بعد أن تمعن فيها أحمد عرابى قليلا تلفت حوله وقال :

— وها هى ذى رسالة أخرى من المسيو «فردناند دلسبس» وفيها يؤكد أن أن الإنجليز يستحيل عليهم النزول فى قناة السويس . ومع ذلك فإننى ما زلت مترددا فى تصديق هذا التأكيد . .

كان ذلك فى ليلة ٢١ يولية سنة ١٨٨٢ فى معسكر الجيش المصرى فى كفر الدوار ، وقد حضر هـذا الاجتماع كثير من القواد المصريين من بينهم محمود باشا فهمى رئيس أركان الجيش المصرى ، وطلبة باشا عصمت ، وخورشيد باشا ، وراشد باشا حسنى ، ومحمود باشا سامى البارودى ، وعلى باشا الروبى .

لقد مضى على احتلال الإنجليز للاسكندرية أسبوع واحد ، ولـكن ذلك لم يدع الوهن والخور يتسرب إلى النفوس ، إذ كان الشعب ثائرا مستعدا للتضحية والجهاد ؛ وكان الجيش ورجاله معقل آمال الوطنيين فالتفوا حوله وشـدوا أزره

بالرجال والمال . لقد استعادت الأذهان ذكرى حوادث عام ١٨٠٧ عند ما جاء هؤلاء الانجليز أنفسهم لاحتلال مصر ونزلوا فى الاسكندرية واحتلوها كما احتلوها اليوم واستخدموا فى ذلك الخديعة والخيانة وجندوا لهـا ذوى النفوس الصغيرة من المتمصرين كما حدث بالأمس ؛ جاءوا اليوم ، وقد اختلقوا المعاذير لاحتلالها كما اختلقوها منذ ثمانين سنة خلت، لأن هدفهم فى الحالين واحد هو بسط يد الاستعمار على هذا الوادى ؛ وإن كانوا قد أخفقوا فى الماضى فمن يدرى فلعلهم ينجحون اليوم ! أليست البلاد قد انقسمت على نفسها ؟ فهنالك حزب الخديو وحزب الوطنيين ، وهناك تركيا تحاول أن تسترجع ما كان لها من سلطان فى مصر . فراحت تغرى الحزبين ، وتوقد النار بين أبناء الوطن الواحد ؛ حتى إذا اندلعت جاءت على الأخضر واليابس ! ؟

نعم إن العصر قد تبدل وتبدلت معه أساليب الحرب فلم يعد فى ميدانها مجال للمتطوعين الذين ليس لهم مهما بلغ حماسهم أن يصمدوا أمام جيش منظم مدرب مسلح بأحدث وسائل القتال ؛ فإذا كانت مصر قد عقدت الأواصر حقا على رد هـذا العدوان المسلح فعليها أن تلتف حول جيشها وعليهـا أن تترك لرجال الحرب أن يديروا دفة القتال ؛ ولقد أصاخت مصر جميعها لهذا القول الفصل ، فأصبحت كرامة مصر أمانة فى عنق رجال المجلس العسكرى الذى اجتمع فى هذه الليلة فى كفر الدوار .

كان محمود باشا فهمى أبرز شخصيات هـذا المجلس بل كان قطب الرحى

ومركز الدائرة ، لقد كان من أعظم المهندسين الحربيين الذين أنجبتهم هذه البلاد ، وكان عليه كرئيس لأركان الحرب أن يضع الخطط والاستحكامات لصد أى تقدم لجيوش الاحتلال النازلة فى الإسكندرية ، وهكذا لم يمض أسبوع واحد منذ أن تراجعت الجيوش المصرية عن الاسكندرية حتى وضع هذا الجندى العظيم خطة شاملة للدفاع ، لقد فكر فى كل شىء وقدر كل احتمال أو مفاجأة . فأقام خمس جبهات للدفاع ، أولها فى كفر الدوار وهى الميدان الرئيسى الذى فيه سوف يلتقى الجيشان إن آجلا وإن عاجلا ، والذى منه قد ينقض الوطنيون على معقل المستعمرين فى الإسكندرية إذا واتتهم الفرصة . وجعل من رشيد جبهة ثانية ، ومن يدرى فقد يعاود الانجليز خطتهم القديمة فينزلون فى رشيد لينفذوا منها إلى داخل البلاد كما حدث منذ ثمانين عاما ؟

وفى دمياط أقيمت جبهة ثالثة ، وأوكل أمرها إلى عبد العال باشا حلمى على رأس فرقة من أبناء الجنوب ، ومن ذا الذى يدرى فقد يعيد التاريخ نفسه فتصبح دمياط ساحة للقتال بين الغرب والشرق كما أصبحت فى الحروب الصليبية؛ وكانت هذه الفرقة السودانية من خيرة الجنود وأشدهم مراسا إذا ما جد الجد . كما أقيمت بين رشيد ودمياط جبهة رابعة .

ولكن لمصر باب شرقى مفتوح على مصراعيه ، هو قناة السويس . فما تجدى هذه الاستحكامات وخطوط الدفاع وما تصنع هذه الفيالق والفرق إذا كان هذا العدو النازل قد بيت العزم على أن ينفذ إلينا من هذا الباب المأى المفتوح ،

الذى لا يبعد عن عاصمة البلاد إلا مائة ميل ، ولديه من وسائل الغزو أساطيل حربية ليس لمصر مثيلاتها تنقل عليها الأمداد والعتاد ، تنقل إليها من الهند كما تفد إليها من انجلترا وجبل طارق ومالطه وقبرص !

ولكن أليست هذه القناة قد كفلت حيادها المعاهدات والاتفاقات الدولية، التى تمنع انجلترا من أن تتخذها ميداناً للغزو والحرب ؟ إذاً فليس للخوف والحذر ما يبرره !

ولكن محمود باشا فهمى كان له رأى غير هذا الرأى، كان يرى أن الحرب خدعة وأن الدولة الكبيرة قد تدوس الاتفقات وتعبث بالقانون الدولى وتجد مع ذلك من يؤيدها وينا صرها ؛ ومثلها فى ذلك مثل كبار اللصوص يتهادنون ويتفقون على حساب الغير !

عند ما قرأ عرابى باشا هذه البرقية ، وقف محمود باشا وأنكر على دلسبس أنه مخلص فى دعواه ، وأكد أنه يقوم بدور الخداع والتغرير إذ أن مصلحته فى أن تبقى القناة مفتوحة، فضلا عن أنه أعجز من أن يقف فى وجه انجلترا ليدفع العدوان بالكلام والجدل السياسى إذا افترضنا حسن نيته . أن أمراً واحدا كفيل برفع هذا الخطر الجاثم على صدر البلاد هو أن نردم هذه القناة ، فمصلحة البلاد فوق مصالح الشركات والأفراد ...

لقد كان محمود فهمى حاسما واضحا فسرت حرارة إيمانه وإقناعه بين أعضاء

المجلس العسكرى فناصروه وأيدوه ، ومع ذلك بقى عرابى مترددا لأنه فى نظر نفسه لا يمثل الجيش فحسب بل الأمة ، وللسياسة أساليبها كما للحرب ، فخشى إذا ما نفذ هـذه الخطة أن يؤلب أوربا ضده وأن يتهم بخرق حيدة القناة وهى مياه دولية . لهذا استقر رأيه على إقامة معسكر فى التل الكبير ما بين القناة والعاصمة حتى تظهر نوايا الإنجليز . وعلى هذا انفض المجلس .

لم يمض أسبوع واحد حتى اجتمع المجلس العسكرى مرة أخرى على عجل؛ لأن الأخبار قد وردت من بورسعيد ومن السويس بأن بعض قطع الأسطول الإنجليزى قد ألقت مراسيها عند طرفى القناة ، نعم لقد أصبحت الشكوك حقيقة ، فالعدو قد دلف بالفعل إلى ذلك الباب المفتوح لينفذ منه إلى قلب البلاد . ومع ذلك فلم يعترف الإنجليز بأنهم اعتدوا على حرمة القناة ، إذ أن بورسعيد ميناء على البحر الأبيض ، والسويس ميناء على البحر الأحمر أما القناة فبينهما مصونة مأمونة ؛ يا لهؤلاء الإنجليز الماكرين . !

وبينما كان أعضاء المجلس يتأهبون لإصدار قرار حاسم ، إذا ببرقية جديدة ترد من دلسبس يوجه فيها الكلام إلى عرابى ويقول فيها « لا تقم بعمل لردم قناتى ؛ فأنا هنا فى بورسعيد ولا تخش شيئا من هذه الناحية ، وأنا المسئول عن كل شىء ، إذ لا ينزل جندى إنجليزى على ضفاف القناة إلا ويسبقه إليها جندى فرنسى .. »

فما أن سمع محمود فهمى فحوى البرقية حتى صاح بغيظ وحنق : أن دلسبس أفاق كذاب فلا تسمعوا له قولا ، إنه يخدر أعصابنا بهذه الكلمات حتى تفلت

« سار هذا الجيش وعلى رأسه خونة من الأعراب »

« غدر وخيانة »

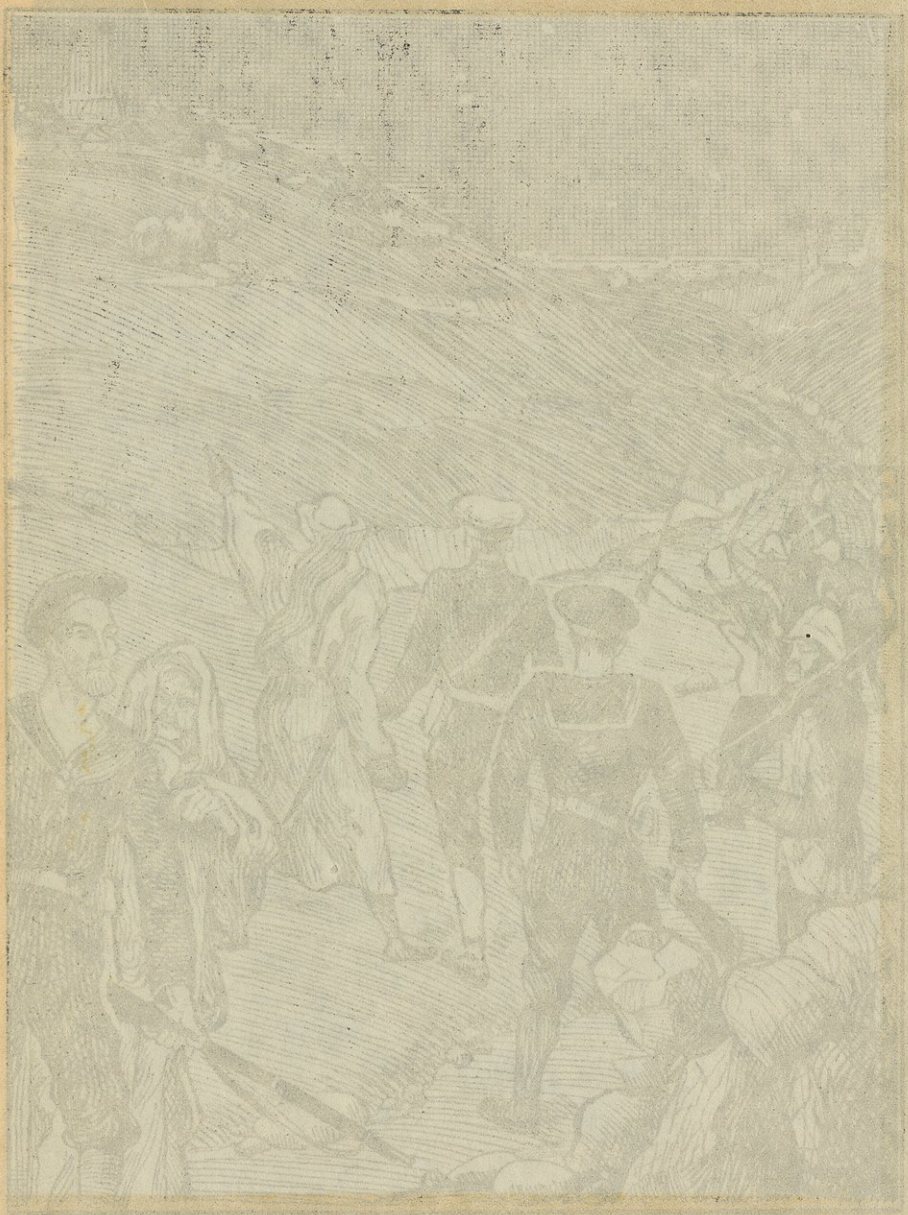

الفرصة من أيدينا ، فإما أن نقرر اليوم ردم القناة وإلا فالفرصة مفلتة من أيدينا ..

وقبل أن ينتهى من كلامه ، جاء الخبر بأن المسيو « نينيه » يريد مقابلة عرابى على عجل ؛ فلم يدعه ينتظر ولم يخرج له بل دعاه إلى مكان المجلس ، ولم يستقر بهذا الفرنسى المقام حتى وجه القول إلى الجالسين .

— أنتم تعرفون مبلغ إخلاصى لقضية هذه البلاد، فباسم هذا الإخلاص أريد أن أنبهكم إلى الخطر الذى كثيرا مالفت إليه أنظاركم كتابة ، وهو مايوجب ردم قناة السويس فورا . وأريد أن أؤكد لكم مع أننى فرنسى بأن دلسبس كاذب فى كل ما يدعيه وأنه على اتصال سرى بجيش الاحتلال الإنجليزى ، ولا يروعنكم احتجاج الشركة لأنه لايعنيها انتصرتم أم هزمتم مادامت مياه القناة متدفقة تحمل على ظهرها الذهب والجاه لحاملى سنداتها . فاذا لم تحتلوا القناة اليوم فسيحتلها عدوكم غدا ، وإذا حدث ووصل الإنجليز إلى الإسماعيلية فان ذلك ختام هذه الحرب.. »

كان شهر أغسطس من عام ١٨٨٢ من أقسى ما عرفته أيام الصيف فى مصر ولكن ذلك لم يفتر من عزيمة آلاف المتطوعين من أصل البحيرة الذين وكل إليهم إقامة الاستحكامات والخنادق فى شبه دوائر متداخلة مركزها الإسكندرية ؛ وكانت قطارات السكة الحديدية تنقل مئات المتطوعين من قلب الصعيد، الذين خلفوا قراهم ومزارعهم وحملوا الكفاف من الزاد على أكتافهم، جاءوا شيوخا وفتيانا آباء وأبناء عندما دعاهم داعى الوطن فلبوه سراعا ، ليس لهم من مطمع إلا الزود

عن حياض هـذا الوطن أو القضاء فى ميدان الشرف والتضحية؛ لقد كانت قلوبهم عامرة بالإيمان فلم تلن لهم قناة ولم يكسر لهم عود ، فردوا عدوهم على أعقابه المرة إثر المرة ، فما أفزعتهم عدته ولا أرهبهم عديده .

لقد أعادت هـذه الانتصارات ذكرى عام ١٨٠٧ لأن على أرض مديرية البحيرة نفسها هزم هؤلاء الأبطال فرق الجيش الإنجليزى المدربة المجهزة بأحدث أنواع الأسلحة ؛ هزموهم فى موقعة الرمل ، فرأوا أمامهم أربع فرق إنجليزية تولى الأدبار بعد ثلاث ساعات وعلى رأسهم قائد من أبرع قوادهم هو الجنرال أليزون.

ولم يمض يومان حتى عاود الإنجليز الكرة ، جاءوا بجيش عظيم امتد جناحاه من المحمودية إلى البرلس، حتى إذا اقترب قلبه من استحكامات كفر الدوار انبرى له القائد المصرى طلبه باشا وطوقه تطويقا حتى كاد أن يقع بأسره فى قبضة الجيش المصرى ، عند ذاك لم يجد العدو بدا من الفرار إلى الإسكندرية والمصريون على أعقابه ، بعد معركة باهرة دامت أربع ساعات لم يفقد المصريون فيها إلا ضابط واحد وتسعة من الجنود الأبطال.

تيقن الإنجليز أن لا وسيلة لقهر الجيش المصرى إلا بالحيلة واستخدام الغدر والخيانة، ولهم فى ذلك قدم راسخة وتاريخ حافل .

فهذه الحملات المتلاحقة لم تفعل أكثر من توكيد قوة الروح المعنوية للجيش المصرى ، وهذه الإمدادات المتوالية لم تفعل شيئا مالقلب موازين المعارك الحربية التى خاضتها هذه القوات حتى ذلك التاريخ .

أخذت الامدادات الانجليزية تتدفق على الاسكندرية وبور سعيد والسويس جاءت من الهند ومن قبرص ومن مالطه ومن جبل طارق ومن قلب انجلترا نفسها جاءت فى أساطيل تسد أفق السماء ، جاءت ببطاريات المدفعية الضخمة وبالقطارات المسلحة وبسلاح فرسانها المتمرن وبخيرة مشاتها ممن حاربوا فى الهند والأفغان وشرق افريقيا . وجاء على رأس هذه القوات عدد من القواد من رتبة جنرال اختارتهم وزارة الحرب البريطانية اختيارا خاصا ممن لهم ماض حافل فى ميادين القتال، وصحبهم عدا ذلك عدد من أمراء البيت المالك الانجليزى نفسه .

كان تاريخ الأسبوع الأخير من شهر اغسطس صحيفة فخار لبطولة الجيش المصرى ، فقد صدت القوات المرابطة حول كفر الدوار كل هجوم قام به العدو استخدم فيه القطارات المسلحة واشترك فيه خيرة قوادهم وعلى رأسه الجنرال ولسلى نفسه .

وكانت أخبار هذه الانتصارات تنتشر فى طول البلاد وعرضها فتملأ الصدور زهواً والنفوس اعتداداً وكبرياء ، فأقبل الناس على التطوع وجمع التبرعات، وانطلقت القطارات من أطراف البلاد إلى كفر الدوار ودمياط والتل الكبير والعباسية، محملة بالرجال موسوقة بالعتاد والأطعمة من ماشيه وغلة وسمن وعسل، كل يجود بما عنده، ولم يتخلف عن أداء هذا الواجب متخلف ، لا فرق بين أمير وحقير فكلهم فى ساعة الخطر سواء ، حتى أن والدة الخديو اسماعيل نفسها أمرت بأن تحل خيول عرباتها وترسل إلى الميدان ، لأن مصر هناك .

لم يبق أمام الإنجليز إلا باب واحد ، باب ينفر من ولوجه الشرفاء الكرماء ، باب الخديعة والغدر والخيانة . .

فى مضرب من مضارب البدو على حدود مديرية الشرقية وإلى غير بعيد من غربى مدينة الاسماعيلية ، اجتمع فى خيمة شيخ القبيلة « سعود الطحاوى » ثلاثة رجال غرباء ؛ أحدهم ضابط شركسى الأصل والثانى أحد عمد مديرية المنوفية والثالث أوربى برغم الثياب المصرية التى حاول بها أن يخفى حقيقة أمره عن العيون . وبعد أن قدمت القهوة لهؤلاء الضيوف عاود الضابط الشركسى حديثه :

— أؤكد لك يا شيخ « سعود » أن هذا السر سيكون فى طى الكتمان وأن المبلغ الذى اتفقنا عليه سيصل إليك فى مساء الغد فلا تخش بأسا . . . ألم تر الأسطول الانجليزى بعينيك فى الاسماعيلية وما عليه من قوة لا يقف أمامها هؤلاء المتمردون من المصريين ؟

وبعد أن ساد السكون دقيقة ، ابتدر الانجليزى الجالسين بالكلام بلغة عربية يشوبها شىء من اللكنة .

— أريد أن أذكرك يا شيخ سعود بما حدث لقبيلتكم على يد سعيد باشا الذى أمر بطردها من الأراضى المصرية فقاست الأهوال والتشتيت ، فأنتم أول من يرحب بوجود سلطة قوية فى البلاد تمنع عنكم هذا الاضطهاد !

وفى هذه الأثناء كان الضابط الشركسى ينشر حزمة من الأوراق ويقدم بعضها للشيخ :

— ألم تعلم يا شيخ سعود أن السلطان وهو خليفة المسلمين وحامى حمى الدين قد أصدر منشوراً يعلن فيه عصيان عرابى وأتباعه ، فمن قتله فهو فى حل من دمه ..

— إن هذه مسائل سياسية لا تعنينى ، ولكن ما الذى يحل بنا إذاشاع الأمر بأن الطحاوية قد اشتغلوا جواسيس للانجليز ، ألا نتعرض لسخط الأهالى وانتقامهم وقد رأيتهم فى الزقازيق وقد بلغ الحماس منهم أشده ؟

— إننى أعدك بشرفى العسكرى بأنكم منذ الآن فى حماية الحكومة ، وقد أمرنى سلطان باشا أن أؤكد لك بأن عملكم هذا ستكافأون عليه مكافأة سخية ؛ إذ فضلا عما اتفقنا عليه من مال ستقطعكم الحكومة أراضى رأس الوادى منحة دون مقابل ، وأريد أن أبين لكم فوق ذلك بأن مهمتكم ليست أكثر من أن تكونوا أدلاء للجيش الانجليزى فى تقدمه صوب التل الكبير ، وأن تعملوا على تضليل الفرق الوطنية حتى لا تصل فى الوقت المناسب إلى المعسكر المصرى ، لأن المهمة الكبرى واقعة على أكتاف بعض أنصارنا من الضباط فى الجيش العرابى نفسه ..

وقبل أن ينتصف الليل كانت المؤامرة الدنيئة قد حبكت أطرافها ، فغادر الثلاثة مخيم القبيلة وعادوا إلى الاسماعيلية .

كان الانجليز خلال هذه الأسابيع ينظمون خططهم للقضاء على الجيش المصرى ، هذه الخطط التى تتنافى مع تقاليد الحرب والشهامة والكرامة ؛ لقد تمكنوا كما رأينا من خداع السلطان ، فأصدر منشوره بعصيان عرابى وأتباعه وطبعوا من هذا المنشور آلاف النسخ وزعها صنائعهم بين المدن والقرى وبين رجال الجيش

نفسه فكان فعلها فعل الأساطيل المدمرة ؛ وجاءوا إلى بعض الباشوات من المتمصرين ذوى الضمائر الميتة ومنوهم الأمانى وزينوا لهم الخيانة ، وأرسلوا أذنابهم وعيونهم ينفقون الذهب ليكسبوا الأنصار بالرشوة ، وانسلوا فى مهارة اللصوص إلى رجال الجيش فاشتروا ضمائر الشراكسة وذوى الأنساب المخلوطة من الضباط، وأثاروا حفيظتهم ضد زعماء الجيش من الوطنيين مذكرين إياهم بمظاهرة عابدين ! لقد كان تدبيرهم منطويا على المكر والخبث لإيقاع الانحلال بين رجال الجيش وصرف القلوب عن محاربة الاستعمار ..

لقد تمت مؤامرة « دلسبس » ووجدت الأساطيل الانجليزية مياه السويس المحايدة ، دخلتها من الشمال والجنوب حتى التقت فى الاسماعيلية ، ولم تكد تلقى مراسيها حتى سلطت مدافعها صوب المعسكر المصرى على الضفة الغربية فأخذت رجاله على غرة ، وقبل أن تتحرك القوات المصرية لتقوية أضعف جبهات القتال كانت هذه القوات قد اتجهت نحو المسخوطة فالقصاصين . وإذا كانت القوات المصرية التى أخذت غدرا قد تقهقرت لتجمع جموعها من جديد فإن بطولة رجالها سير عطرة تذكر كلما يذكر الإقدام وتذكر التضحية ؛ ففى موقعة القصاصين أصيب القائدان المصريان راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى بجراح قاتلة فحملا سويا من الميدان إلى القاهرة .

وهناك على منحدر «التل الكبير» اجتمعت جموع القوات المصرية على عجل، جاءت من كفر الدوار ورشيد ودمياط جاءت لتصد هذا العدو المخادع ، الذى لولا

تمسك المصريين بكلمة الشرف لما أمكنه أن يتسرب بأساطيله إلى رحبة البلاد الشرقية ؛ ولكن هكذا شاء الانجليز أن يشتروا عن النصر بخسا زهيدا .

كانت ليلة ١٢ سبتمبر دامسة الظلام توارت نجومها خزيا وتهاوى قمرها خجلا وعارا ، فما انتصف ليلها حتى تحركت القوات الانجليزية وقد أطفأت أنوارها والتحفت الظلام الحالك الأسود كما يفعل قطاع الطريق ، سار هذا الجيش وعلى رأسه خونة من الاعراب ، باعوا ضمائرهم بالمال الزائل الزائف ، واشتروا خزيا يدوم مدى الأيام . . .

وهناك فى المعسكر المصرى ، كانت الخيانة قد أفرخت فى عشها كما تفرخ الثعابين ، فبينما كانت قلوب هذه الآلاف من المجاهدين الأبرار عامرة بما تعمر به القلوب المؤمنة ؛ كان قلب رجل واحد قد عصفت به الشهوة فأضلته رشده وأفقدته الكرامة ، فما كان مصريا إلا بجسمه ، وما كان جنديا إلا برسمه ؛ كان ذلك هو الأمير الاى «على يوسف خنفس» .

وما كاد فجر ذلك اليوم الأغبر يشقشق ، حتى كانت القوات الانجليزية على مرمى السهم من المعسكر المصرى ، وقد مهد لها ذلك الضابط الخائن الطريق إلى صميم صدره ..

وماذا تفعل البطولة ؟ وماذا يجدى الإقدام ؟ لقد دافعوا دفاع الأبطال وماتوا موتة الأبطال واختلطت دماؤهم بالرمال الندية ؛ ولكنهم ماانهزموا وما طأطأوا الرأس مهانة ولازلة ؛ وما انتصر أعداؤهم ، ومتى كان اللصوص أبطالا !؟

ثم سار الجيش ـ موكب الخيانة والغدر ـ إلى عاصمة البلاد ، وهناك استقر على ضفاف النيل ، وفى قصر إسماعيل .

ثم مرت الأيام والأعوام ، وقضى جيل ونشأ جيل ، وما صمت صوت يطالب بالحق المضاع ، وما تخلف متخلف عن هذا الصراع ؛ واحترق بنار الثورة شباب الوادى وشيبه ، ولكن قلوبهم وحدها بقيت حية خفاقة ، حتى إذا كان يوم ٣٠ مارس سنة ١٩٤٧ ، وبعد خمس وستين عاما من ذلك اليوم المنحوس ؛ وقف أحفاد أولئك الأبطال يشاهدون فلول ذلك الموكب تختفى وراء الأفق .

فعاد النيل إلى اصطفاقه ، وقصر إسماعيل إلى إشراقه ..

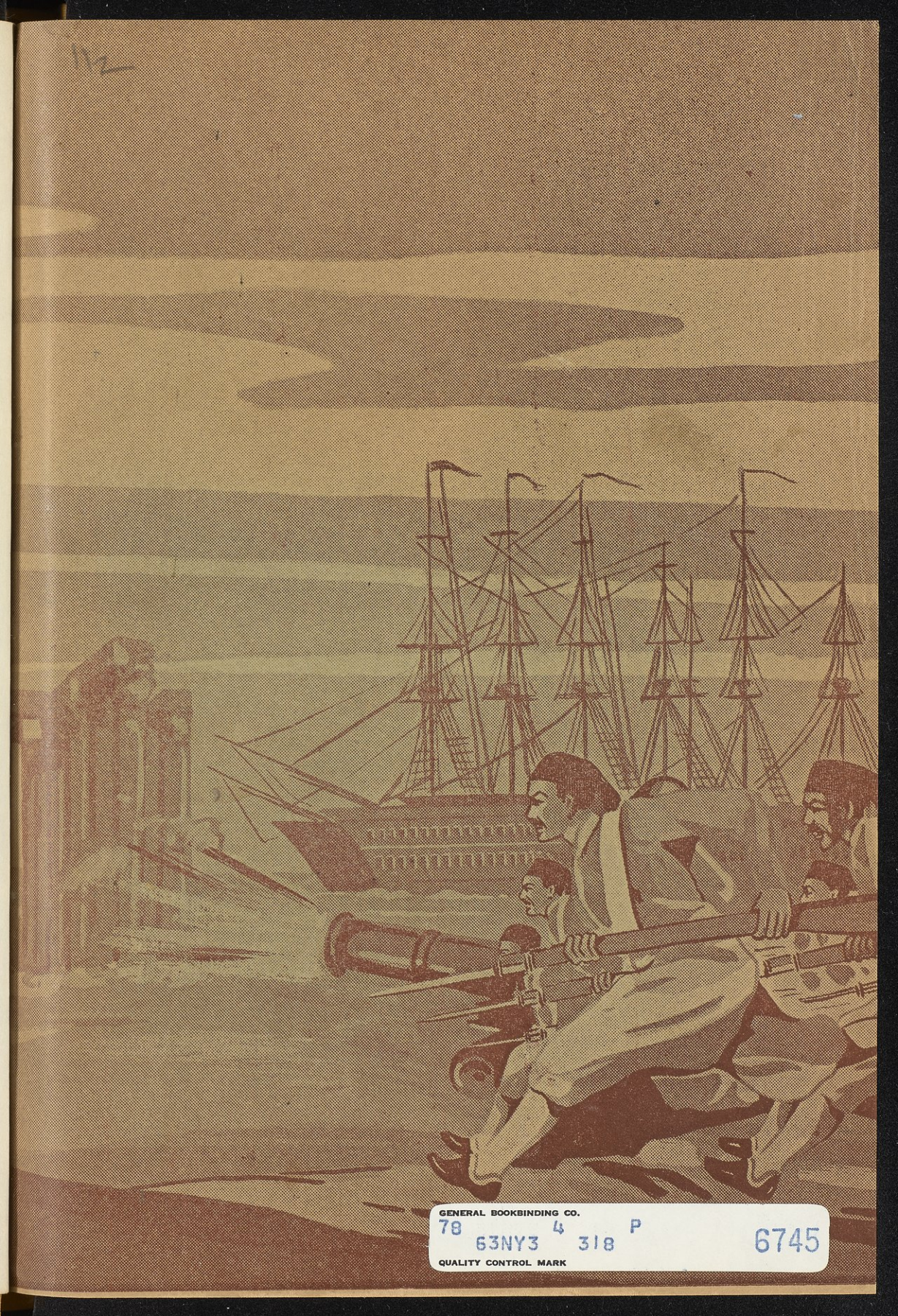

GENERAL BOOKBINDING CO.
78 4 P
63NY3 318 6745
QUALITY CONTROL MARK

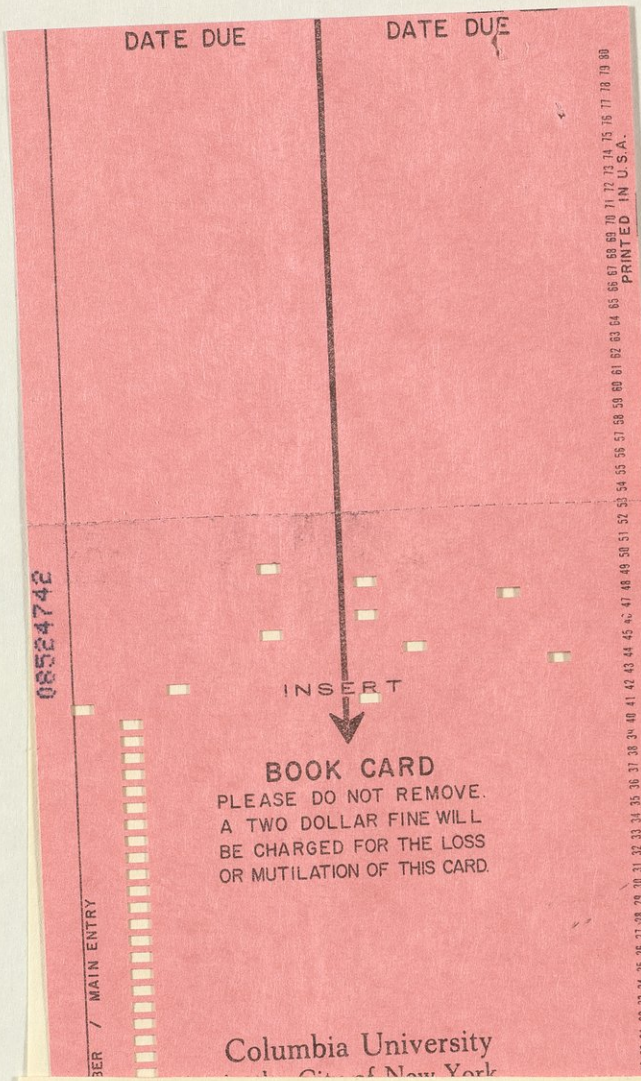

08524742

DEMCO

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU55290841
UA865 .A8 Misr fi al-maydan :
RECAP